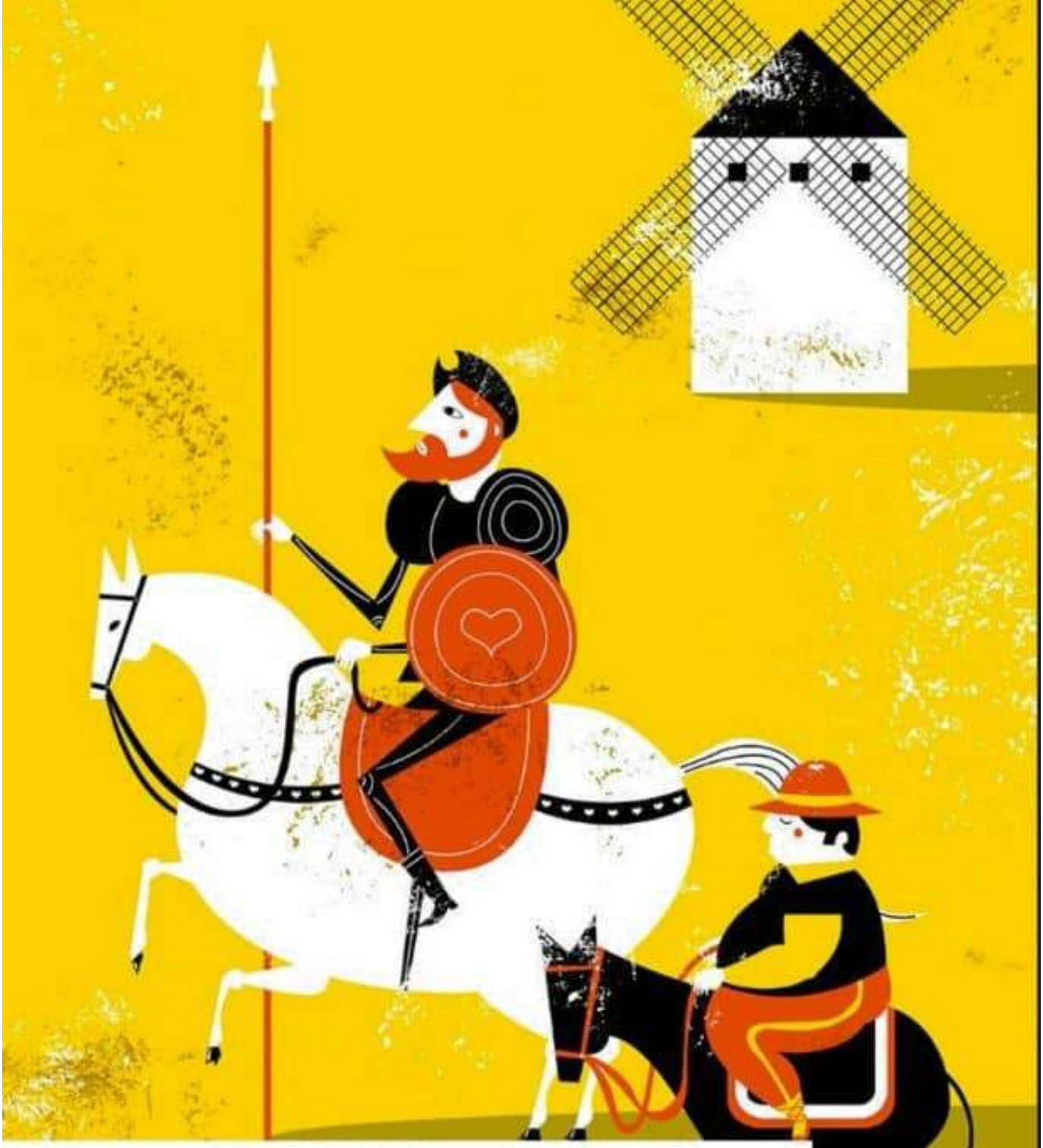

ميراث سرفانتس اللانهائيّ

مختارات من القصة القصيرة العالمية

Telegram:@mbooks90

ترجمة خالد الريسوني

ترجمة خطوط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطوط وظلال

للنشــر والتوزيع

الأردن، عمّان، جبل الحسين، بناية (٢٠)

تلفون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+

email: dar5otot@gmail.com

ص.ب: 11190، عمّـان 925220 الأردن

ميراث سرفانتس اللانهائيّ - ترجمة خالد الريسوني

ترجمة - الطبعة الأولى، ٢٠٢١

جميع الحقوق محفوظة ©

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي:

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the Publisher

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٥١٠٦/ ١٢/ ٢٠٢٠)

٨٦٣

ميراث سرفانتس اللانهائي / اوكتفيو باث .. وآخرون

ترجمة: خالد الريسوني

ـ عمان: خطوط وظلال للنشر والتوزيع ٢٠٢٠

(١٨٤) صفحة

ر.إ.: (٥١٠٦/ ١٢/ ٢٠٢٠)

الواصفات: /القصص الاسبانية//الأدب الاسباني//الادب المترجم/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الرقم المعياري الدولي: ISBN: 978-9923-40-164-4

تقديم

خالد بلقاسم

يَضمّ كتابُ «ميراث سرفانتس اللانهائيّ» قصصاً قصيرةً لكتّاب من أهمّ مَن مكّنوا هذا الميراث مِن شقّ شعاب مُختلفة، ومِن مُواصلَة نسَبه إلى اللانهائيّ عبْر مسالك مُتباينة. يشهدُ اللانهائيّ، الذي أرساهُ سرفانتس سرديّاً في رائعته «دون كيخوطي»، امتدادَهُ المُتشعّبَ في تجارب هؤلاء الكتّاب الذين تتجاوَزُ قصصُهم في هذا المؤلّف. امتدادٌ تسنّى من مواقعَ عديدة، لأنّه يقومُ، وإن تمّ بلُغة سرفانتس، لا على الاتّصال وحسب، بل أيضاً على الانفصال الذي يُعدُّ أساسَ كلّ امتداد خصيب.

Telegram:@mbooks90

يُضيفُ كلُّ كاتب من كتّاب القصّة القصيرة، الذين يُحقّقُ لهُم مؤلّف «ميراث سرفانتس اللانهائيّ» تجاوُراً دالاً، لمستَهُ الخاصّة إلى روافدِ هذا اللانهائيّ، انطلاقاً من حساسيّة كتابيّة تحملُ دَمغةَ صاحبها وملامحَ خطابه الخاصّ. لقد أسهمَ كتّابُ هذه القصص، مثل آخرين لم يتّسع لهُم هذا المؤلّف، في ترسيخ الحيويّة التي عليها يقومُ السرد، ولاسيما في صُورَته التكثيفيّة المُجسّدة في القصّة القصيرة.

يكشفُ هؤلاء الكتّاب، كلٌّ من مَوقعه، عن خبايا العوالم التي يتوَغّلُ السردُ في استجلائها، وتحديداً السرد المُكثّف، القائم على بناء لغويّ دقيق بلغَت وَجازتُه، أحياناً، حدّها الأقصى، كما هي الحال في بعض نصوص هذه الإضمامة. فضلاً عن ذلك، أبانَت التجاربُ الكتابيّة، التي تتجاوزُ في هذه الإضمامة، عن طاقة الحكاية، وفق ما سبقَ لسرفانتس أن أرساه، في استجلاءِ الخَبيءِ، وإضاءةِ المُعتمِ، ورَفعِ الحُجُب عن نسيان الوجود، كما أبانت هذه التجارب عن طاقة الحكي الخاصّة في بناء معرفةٍ حَيويّة بمَجهول الذات، وبأسرار الحياة، وبتشعُّب العلاقات الإنسانيّة.

يُصاحبُ القارئُ لهذه الإضمامة، التي اختارَ الباحثُ خالد الريسوني قصصَها القصيرة وترجَمَها عن الإسبانيّة، نصوصاً لكتّاب وازنين، هُم: أوكتافيو باث، خوان خوسيه مياس، إينريكي بيلا ماتاس، خوليو رامون ريبيرو، خوليو غارمنديا، خورخي لويس بورخيس، ماريو بارغاس يوسا، كارلوس فوينتس، خابيير ماريّاس،

خوسيه ماريا ميرينو، أوغستو مونتيروسو، رودولفو والش، خوان إدواردو ثونييغا، روبيرتو بولانيو، لويس فياض، خوان خوسيه أريولا.

مُعظم هؤلاء الكتاب يتحدّرون من أمريكا اللاتينيّة، التي فيها لامسَ السردُ مناطقَ كتابيّة قصيّة عبر تجديدٍ طالَ مواقعَ الرؤية وعناصرَ البناء النصّي. فإذا استثنينا خمسة كتّاب، هُم: خوان خوسيه مياس، وإينريكي بيلا ماتاس، وخابيير ماريّاس، وخوسيه ماريا ميرينو، وخوان إدواردو ثونييغا، الذين يتحدّرون من إسبانيا، فإنّ باقي الكتّاب هُم من أمريكا اللاتينيّة. لكنّ المُشترَك بين هؤلاء الكتّاب جميعهم هو تمثيلهُم لحساسيّة تنطلقُ من إرث سرفانتس، قبل أن ترسمَ لهذا الإرث طرُقاً مُتشعّبة في أدغال السرد، اعتماداً على ما تُتيحهُ القصّة القصيرة بوجه خاص، التي إليها انحازَ أغلبُ هؤلاء الكتّاب. صحيح أنّ منهم مَن زاوجَ بين كتابة الرواية وكتابة القصّة القصيرة، بل إنّ بعضَهم أولى الروايةَ عنايةً لافتة، لكنّ كثيراً منهم أيضاً جعلوا القصّة القصيرة النوعَ السرديّ الذي به ارتبطت كتابتُهم.

تتقاطعُ قصص هذا الكِتاب، من داخل الاختلاف الذي يَرسمُ تفرّدَ تجارب أصحابها الكتابيّة، في الوعي بقوّة السرد، وبقدرته الهائلة على التوغّل بعيداً في أغوار الذات الإنسانيّة، وفي استجلاء جوانبَ خفيّة من الحياة، ولفْتِ النظر إلى تفاصيلَ تنطوي على أبعادٍ تتكشّفُ في السرد وبه، انطلاقاً من إضاءات مُكثّفة. تكثيفٌ يقومُ على اقتصاد في القول وعلى تركيب لغويّ يستندُ إلى الوَجازة والدقّة والتأنّي.

ترومُ قصص هذه الإضمامة، وَفق بناء نصيّ مدروس لا يُفرّط في التكثيف الذي تتبايَنُ درجاتُهُ من قصّة إلى أخرى، سَبرَ أسرار الحياة، والتقاطَ مَلمح مَنسيّ من ملامح اليَومي، والنفاذَ إلى جُزئيات يُبرزُها مُتخيّلُ القصص أو يَجلو عنها النسيان أو يَختبرُ الإمكانَ الدلاليَ لغرابتها أو لبُعدها العجائبي، قبل أن يُحَوّل هذه الجزئيّات إلى أسئلة وُجوديّة أو ميتافيزيقيّة. تُنصتُ قصصُ هذه الإضمامة، في الغالب العامّ، لأشياءَ مُتناهيةِ الصِغر، ومنها تعبُرُ إلى دلالات شاسعة، بل إنّ من هذه القصص، مثل قصّة عبر السطوح لخوليو رامون ريبيرو، ما يُنبّهُ على خُطورة الأشياء الصغيرة، وعلى أنّ الأشياء المُتناهية الصِغر هي التي تُعذّبُنا.

لعلّ ما يَحكمُ تقاطُع هذه القصص، بوَجه عامّ، هو التفرّد الباني لاختلافها. تكادُ كلُّ قصّة في هذه الإضمامة تُجسّدُ حساسيّةً كتابيّة خاصّة. ومن ثمّ، فالمُشترَك بين القصص لا يَنحصرُ في المُتخيّل الذي فيه يتقاطعُ بعضُها، ولا في القلق الوُجوديّ الذي يَسري في تفاصيل أغلبها، بل في دَمغة كلّ قصّة من داخل هذا التقاطُع نفسه. درجة المُشترَك، التي لا تمحُو الدّمغةَ الذاتيّة، تختلفُ بين القصص، إذ تتبدّى بقوّة لافتة أحياناً بين بَعضها، وتكادُ، على العكس من ذلك، تختفي في حالات أخرى. لا يكونُ المُشترَكُ الجامعُ هو دوماً ذاتُهُ، إذ لا تكونُ القَرابةُ الواصلة بين بعض القصص، التي تُحقّقُ لها التقاطُع، هي عينُها ما يَجمعُ بين قصص أخرى تسنّى لها أنْ تشترك في عناصر مُعَيّنة. وهو الأمر الذي يسمحُ، استناداً إلى درجة التقاطُع، بالحديث عن مجموعات قصصيّة داخل هذه الإضمامة، وَفق العُنصر المُهَيمن على كلّ مجموعة تحقّقت القرابة بين قصَصها.

يُمكنُ، مثلاً، رَصد تباين التقاطع بين قصص هذه الإضمامة انطلاقاً من رهان بَعضها على العجائبيّ مَوقعاً لتوليد الدلالة، وهو العُنصر الباني لقرابة بعض القصص في هذا المؤلّف، أو مِن حِرص بَعضها على النفاذ إلى السلوك الإنسانيّ للكشف عن وقائعَ حياتيّة وعن مناطقَ مجهولة في الذات، أو مِن سَعي بَعضها الآخَر إلى استجلاء سؤال وُجوديّ استناداً إلى تفاصيلَ جزئيّة. لكنّ التقاطع، الذي يَتحقّقُ بين بعض قصص الإضمامة اعتماداً على زاوية من هذه الزوايا الثلاث، يَحتفظ دَوماً بالاختلاف، الذي يَسمَحُ بمُلامَسة الحساسيّة الذاتيّة في عناصر السرد وفي بناء القصة، أي أنّ ما يَبني القرابة بين مجموعة من القصص هو ذاتُه ما يُؤمّنُ اختلافَها وتفرّدَ كلّ قصّة بنَبرة صاحبها.

لإضاءةِ هذه الملاحظة، يُمكن الإشارة مثلاً إلى أنّ رهان بعض قصص هذه الإضمامة، مثلاً، على العجائبيّ لا يتمّ بالآليّات ذاتها ولا بالعناصر السرديّة نفسِها. لعلّ ما يكشفُ، مثلاً، عن هذا الأمر بجلاء هو الطريقة التي بها تمّ استثمار العجائبيّ في قصّة «حياتي صحبة الموجة» لأوكتافيو باث وفي قصّة «الجهة الخلفيّة» لخوان خوسيه مياس. لا يَروم العجائبيّ، بوصفه عُنصرَ القرابة بين القصّتين، تحقيقَ الإدهاش الناجم عن أمر خارق وحسب، بل يُراهنُ بوَجه رئيس على جَعْل ما ليس

مألوفاً خزّاناً دلالياً، منهُ تنبثقُ الاحتمالاتُ البعيدة التي تُواصلُ تناسُلَها حتى بَعد الانتهاء من القراءة. القصّتان معاً تشتركان في نُهوضهما على العجائبيّ، لكنّ رهان لعبة الحكي فيهما مُختلفٌ، إذ يأخذ استثمارُ العجائبيّ في كلٍّ منهما منحىً مَوسوماً بنبرة الكاتب.

في القصّة الموسومة «حياتي صحبة الموجة» لأوكتافيو باث، تتقدّمُ مَوجةٌ خارجةٌ من البَحر لتتعلّق بذراع الراوي وتُرافقه بإصرار، لتبدأ مُعاناتُه في كيفيّة اصطحابها معه دون أن يراها أحد، بما يَترتّبُ على ذلك من إحراج للراوي، قبل أن تواصلَ المَوجة مُلازَمَتَهُ في بَيته، على نحو يجعلُ القارئَ يُتابعُ هذه الصُّحبة العجيبة، ويقتربُ، في آن، من أمور تُطلعهُ على مسار حياة المَوجة وتقلُّب مزاجها، وتدفعُه إلى التفكير في الاحتمالات الدلاليّة للحياة من المرآةِ التي تُتيحها تحوّلات الموجة.

في القصّة المُعنونة بـ «الجهة الخلفيّة» لخوان خوسيه مياس، تُديرُ الأشياءُ جميعُها ظهرَها للراوي وتُصرّ على ألاّ تُظهرَ لهُ سوى وجهتها الخلفيّة، ويَحتدُّ هذا البُعد العجائبيّ في القصّة بانتقال الأشياء من إبداء وجهتها الخلفيّة إلى ظهورها مَقلوبةً تماماً. في كلّ أطوار القصّة، تتكشّفُ دلالة اللانهائيّ الصامت في التفاصيل. فالوجهة الخلفيّة ليست سوى خلخلة للرؤية الحاجبة التي أُلِفَت النظر من زاوية واحدة. ألفةٌ تُحوّل زاوية النظر إلى عمى. إنّه العمى الذي يُكرّسُ نسيانَ الوجود، ويُضيّق احتمالات الحياة وإمكاناتها اللانهائيّة. هكذا تستثمرُ القصّة العجائبيّ كي تؤكّد أنّ للأشياء أكثرَ من جهة، وأنّ التعوّدَ على جانب واحد من الواقع والحياة والوجود هو خطأ شنيع، "لأنّنا في ذلك نصيرُ كما لو كنّا لا نسكنُ سوى جُزءٍ من بَيتنا، أو من جسمنا".

في إضمامة «ميراث سرفانتس اللانهائيّ»، لا تنتهي الاحتمالاتُ السارية في طيّات كلّ قصة بالانتهاء من قراءتها. الفراغ من قراءة كلّ قصّة، في هذه الإضمامة، لا يُوقِفُ الاحتمالات الدلاليّة، بل على العكس يُوقظها، ويُلزمُ القارئَ بصفت استرجاعيّ، وبالمُشارَكة في تخمين احتمال من الاحتمالات الدلاليّة قبل الانخراط في بنائه

تأويلياً. الانتهاء من قراءة هذه القصص ليس إلاّ البداية الفعليّة للتفكير في الجُزئيّات التي عليها تقومُ النصوص. وهو التفكير الذي يكون، في الغالب، بوّابة للمُساءلة وبناء التأويل.

من الواضح، استناداً إلى الإشارة السابقة، أنّ كلّ القصص المُختارة في هذه الإضمامة تنتسبُ إلى إعادة القراءة. انتسابٌ يُلزمُ الكتابة بأنْ تتمّ بالتأني الكبير، الذي يجعلُ القصّة القصيرة سعيدةً بطياتها وانثناءاتها التي تُعيدُ النظرَ حتى في ثنائيّة الطول والقِصر. فالقِصَر في الحجم ينطوي في الغالب، كما هي الحال في مُعظم قصص هذه الإضمامة، على طول آخَر، يَكتشفُهُ القارئُ في الامتدادات الدلاليّة التي عليها ينطوي التكثيف، وفي التشعّبات التأويليّة التي إليها تدعو هذه القصص.

حياتي صحبة الموجة

أوكتافيو باث

حينما تركت ذلك البحر، تقدّمت مَوجة بين الجميع، كانت رشيقةً خفيفة رغم صرخات الأخريات اللواتي كنّ يُمسكن بها من فستانها الطافي، تعلّقت بذراعي ومضَت بصحبتي وهي تقفز، لم أرغب في أن أقول لها شيئاً لأنّه كان يحزّ في نفسي أن أخجلها أمام رفيقاتها. فضلا عن ذلك، فالنظرات الحانقة للكبيرات شلّت حركتي. حينما وصلنا القرية فسّرتُ لها أن الأمر مُستحيل، وأن الحياة في المدينة ليست كما تُصورها لها سذاجتها، سذاجة مَوجة لم تُغادر البحر قط. نظرَت إلي جادّة: «لا، كان قرارها محسوماً لا يُمكنها أن تعود»، حاولتُ معها تارةً بالرفق، وتارةً بالقسوة، ثم بالسخرية. بَكت، صرخَت، لاطفت، توعّدت. اضطررتُ أن ألتمس منها العفو.

وفي اليوم الموالي بدأت مُعاناتي، كيف أركب القطار دون أن يرانا السائق والمُسافرون والبوليس؟ من المؤكّد أن القوانين لا تقول شيئاً بصدد تنقّل الأمواج عبر قطارات السكك الحديديّة، لكن هذا التحفظ هو دليلٌ على الصرامة التي سيتمّ الحكم من خلالها على فِعلنا. بعد تفكير طويل، حضرتُ إلى المحطة ساعة قبل انطلاق القطار، وشغلتُ مقعدي، وحينما لم يكن يراني أحد، أفرغتُ خزّان الماء الخاصّ بالمُسافرين وصببتُ فيه صديقتي.

لاح العارضُ الأوّل حينما أعلنَ أطفالُ زوجين في المقاعد المُجاورة بصَخب عطشَهم. اعترضتُ سبيلهم ووعدتهم بمرطّبات وبمشروبات الليمونادا، كانوا على وشك القبول عندما تقدّمت امرأةٌ أخرى عطشى. رغبتُ في دعوتها هي الأخرى، لكن نظرةُ مُرافقها منعَتني. تناولت السيدة كأساً من ورق، ودنّت من الخزّان وفتحت الصنبور، وما كادت تملأ نصف الكأس حتى تدخّلتُ بوثبة بينها وبين صديقتي مُعترضاً طريقها، نظرَت إليّ المرأة باندهاش بينما كنتُ أقدّم اعتذاراتي، عاد أحدُ الأطفال ليفتح الخزّان. وأقفله بعُنف. أدنَت المرأةُ الكأسَ إلى شفتيها:

- آه، الماء مالح.

ردّدَ الطفل ما قالته، قام عددٌ من المُسافرين ونادَى الزوجُ على السائق:

- هذا الشخص وضعَ ملحاً في الماء.

نادى السائق على المُفتش:

- أأنت إذن من صبّ موادّ في الماء؟

المُفتش نادى على الشرطي المُناوب:

- أأنت إذن من صبّ شمّاً في الماء؟

الشرطي المُناوب نادَى على القائد:

- أأنت المُسمّم إذن؟

نادى القائدُ على ثلاثة من أفراد الشرطة، وقادَني أفرادُ الشرطة إلى عرَبة مُنعزلة ما بين نظرات المُسافرين وهمساتِهم. في المحطّة الأولى أنزلوني، بفظاظةٍ سحبوني إلى السجن. خلال أيام لم يُكلّمني أحدٌ ماعدا خلال الاستنطاقات الطويلة، حينما كنتُ أحكي قصّتي لم يكُن يُصدّقني أحد، ولا حتى السجّان الذي كان يهزُّ رأسَه قائلاً: «القضية خطيرة، خطيرة حقّاً. ألم تكُن ترغبُ في تسميم الأطفال؟»، وخلال أحَدِ المساءات أخذوني لأمثُلَ أمام الوكيل العام ،

- قضيتك صعبة، ردّدَ، سأضعُك بين يدي قاضي الجنايات، هكذا انقضى العامُ، وفي الأخير حاكموني. وبما أنّه لم يكُن ثمّة ضحايا فقد كانت عقوبتي خفيفة، إذ بَعد وقت قصير أتى يومٌ استعدتُ فيه حرّيّتي.

استدعاني مُدير السجن:

- جيّد. أنت الآن حُرّ. لقد كنتَ محظوظاً. لأنّه لم تقع مصائب، لكن لا تعُد إلى تكرار ما فعلتَ، لأنّك في المرّة القادمة ستؤدّي الثمن غالياً. ونظر إليّ بنفس النظرة الجدّيّة التي ينظرُ بها إليّ الجميع. في ذلك المساء ذاته كنتُ أستقلّ القطار، وبعد ساعات قليلة وصلتُ إلى مكسيكو، ركبتُ سيارة أجرة وتوجّهتُ إلى البيت، وحينما اقتربتُ من باب شقّتي سمعتُ ضحكات وأغنيات، أحسستُ في قلبي ألماً شبيهاً بدفقة مَوجَة

الفُفاجأة حين تصفعُنا الفُفاجأة في عُمق القلب: فقد كانت صديقتي هناك تُغنّي وتضحك مثلما هي الحال دائماً.

- كيف غُدتِ؟

- الأمر في غاية البساطة. في القطار وبعدما تأكّد أحدُهم بأنّ الأمر يتعلّق فقط بماء مالح، ألقى بي في القاطرة. كان سفراً مُضطرباً: بغتة صرتُ خصلة شعر بيضاء من بُخار، وبغتة تساقطتُ مطراً خفيفاً فوق القاطرة، غدوتُ نحيلة جدّاً، وفقدتُ قطرات كثيرة.

حُضورُها غيّرَ حياتي، المنزل ذو الممرّات المُعتمة وقِطع الأثاث المُغبرة امتلأ بالهواء والشمس والخرير والظلال الخضراء والزرقاء، شعبٌ مُتعدّدٌ وسعيدٌ من فوانيس وأصداء. كم مَوجات هي الموجة، وكيف يُمكن لجدار أو صَدر أو جبهة مُكلّلة بالزبد أن يتحوّل إلى شاطئ أو صَخرة أو كاسرة أمواج! حتى الزوايا المَهجورة، الزوايا الحقيرة للغبار والنفايات لامستها أياديها الخفيفة. الكلّ شرعَ يبتسمُ وفي كلّ الأمكنة كانت الأسنان البيضاء تلتمع. كانت الشمس تقتحم الغُرف العتيقة بكلّ سرور وتبقى لساعات في البيت، في حين تكون قد غادرت البيوت الأخرى، بل غادرت الحيّ والمدينة والبلاد. خلال ليال رأتها النجمات المُستنكرة وهي تخرُج مُتخفية من بيتي في وقت مُتأخّر.

كان الحُبّ لعبة، خلقاً مُتأبّداً، كان كلُّ شيء شاطئاً ورَملاً وسريراً بشراشفَ خفيفةٍ دائماً. إنّ عانقتُها كانت تنتصبُ رَشيقة بشكل لا يُمكن تصديقه مثل ساق حور أسود مُبلّل، ثم بغتة كانت تلك النحافة تُزهرُ في دفقةٍ من ريش أبيض، في زهو ضحكات كانت تهوي فوق رأسي وظهري وتُغطّيني بالبياض، أو كانت تمتدّ أمامي لا نهائيةً مثل الأفق، حتى صرتُ أنا أيضاً أفقاً وصمتاً. مُمتلئة ومُتعرّجة كانت تلفّني مثل موسيقى أو مثل شفاه مُكتنزة، حُضورُها كان مضياً ورواحاً من المُداعَبات والصخب، والقُبل.

كنتُ ألجُ ماءها وأنغمرُ فيه جزئياً وفي طرفة عين أجدُ نفسي في الأعلى، في أعلى درجات الدوار، مُعلّقاً بشكل غامض، لأسقط فيما بَعد مثل حجر، وأشعرُ بنفسي

موضوعاً بلين في مكان جافّ مثل ريشة. لا شيء يُقارن بالنوم مُهدهداً في تلك المياه، إن لم تكُن الاستفاقة تحت قرع ألف سَوط خفيف جذل، فبألف هُجوم سوف ينسحب ضاحكاً.

لكنّي أبداً لم أصِل إلى مركز وُجودها، وأبداً لم ألامس غصّة الآهات والموت. لربّما لا يوجد عند الموجات مثل هذا الموضع السرّيّ الذي يجعلُ المرأة قابلة للانجراح والموت، ذلك الزّر الكهربائيّ الصغير حيث كلّ شيء يتّصلُ ويتقلّص وينتصبُ لكي يُغمَى عليه فيما بعد.

كانت حساسيّتُها تمتدُّ في مَوجات مثل حساسيّة النساء، لكنّها لم تكُن فحسب مَوجات مُتمركزة بل ومُنحرفة عن المركز، تمتدُّ في كلّ مرّة نحو الأبعد حتى تُلامسَ كواكب أخرى. أنْ تحبّها معناه أن تتمدّد في اتصالات نائية، أن ترتجّ مع نجوم بعيدة لا نرتابُ منها.

لكن مركزَها ... لا، لم يكُن لديها مركزٌ بل فراغٌ شبيهٌ بفراغ الإعصارات، إذ كان يَمتصُّني ويخنقني.

مُمدّدين الواحد جنب الآخر، كنّا نتبادلُ الأسرار والهمسات والضّحكات، وكانت هي تتكوّم وتهوي على صدري وتنتشر هنالك مثل نَبت من شائعات، تُغني في أسماعي، محارة تتبدّى مُتواضعة وشفافة، وكانت تستلقي جنب قدمي مثل حيوان صغير، ومثل مياه وديعة. فقد كانت شديدة الصفاء، لدرجة أنني كنت أستطيع أن أقرأ كلّ أفكارها. في بعض الليالي كان يتغطّى جلدها بوَمضات فسفورية وكان يتحوّل عناقي لها إلى مُعانقةٍ لقطعة ليلة موشومة بالنار. لكنّها كانت تصيرُ حالكة ومُرّة أيضاً. وفي ساعات لا مُتوَقّعة كانت تجأر وتتأوّه، وتتلوى، وكانت أنّاتها تُوقظ الجيران، وحين تستمعُ إليها الريح البحريّة وهي تكشط باب البيت أو تهذي بصوت عال فوق السطوح.

كانت الأيام الغائمة تُغيظها، فتكسرُ أثاث البيت، وتتلفظ بعبارات نابية، تكسوني بالشتائم وبزبَد رماديّ اللون، مائل إلى الخضرة، كانت تبصقُ وتبكي وتحلفُ الأيمان وتتكهّن. ومشدودة إلى القمر، إلى النجوم، إلى تأثير نور عوالم أخرى تُغيّر مزاجها

وسحنتها بشكل يبدو لي رائعاً، لكنها كانت حاسمة مثل مدّ البحر. بدأتْ تشكو عُزلتها فملأتْ البيتَ محارات وقواقع، ملأتْه بمراكبَ شراعيّة صغيرة، كانت تُغرقها في أيام غضَبها (مع تلك المراكب الأخرى التي تنبثقُ من جبهتي مُعبّأةً بالصور، وتغرق في إعصاراتها الضارية أو اللطيفة). كم من كنوز صغيرة ضاعت في ذلك الوقت! لكن لم تكُن تكفيها مراكبي ولا غناء المحارات الصامت. كان لزاماً عليّ أن أقيمَ في البيت مُستوطَنة للأسماك وأعترف أنّني كنتُ أراها، ليس دون أن تُثير غيرتي، تسبحُ في حضن صديقتي، تداعبُ نهديها وتنامُ بين ساقيها وتزيّنُ شعَرها بوميضِ بُروقٍ مُلوّنة وخفيفة.

من بين كلّ تلك الأسماك كان بعضُها بوَجه خاصّ كريهاً وشرساً، نمور أحواض صَغيرة، أسماك ذوات عيون ثابتة وشاسعة، وأفواه مَشقوقة ذابحة، لستُ أدري لأيّ زيغ كان يحلو لصديقتي أن تلهو معها، مُبرزةً تجاهها دون حياء تفضيلاً أوثر أنا تجاهُل دلالته. كانت تمضي ساعات طويلة سجينة صُحبة تلك الكائنات المُرعبة، وفي يوم ما لم أعُد أحتملُ منها أكثر. كانت رشيقة وطيفيّة، تنفلتُ من بين يدي بينما هي تضحكُ وتضربني حتى تطرحني أرضاً، أحسستُ أنها تخنقني، وحينما كنتُ على وشك أن أسلم الروح وقد بلغتُ اللحظة الحرجة، وضعَتني بنعومة على الشط، ثم بدأت تقبّلني وهي تقول أشياء لا أفهمُها. أحسستُ نفسي مُوهَناً جدّاً، مُرهقاً ومُهاناً، فقد كان صوتُها عذباً، وكانت تُحدّثني عن الموت المُمتع للغرقى، وحينما عُدت إلى نفسي بدأتُ أخافُ منها، بل إنّي صرتُ أكرهها.

كانت أشيائي مُهمَلة لديها، فشرعتُ في مُعاشرة الأصدقاء، وجدّدت علاقات قديمة وعزيزة، التقيتُ صديقة من زمن الشباب، وبعدما استحلفتها أن تحفظ السرّ، حكيت لها عن حياتي ضُحبة الموجة. لا شيء يهزّ مشاعر النساء أكثر من احتمال إنقاذ رجُل، إذ أنّ مُنقذتي استعملَت كلّ فنونها، لكن ما الذي تستطيعُهُ امرأةٌ تمتلكُ عدداً محدوداً من الأرواح والأجساد في مواجَهة صديقتي المُتغيّرة أبداً، والمُماثلة لذاتها أبداً في تحوّلاتها المتواصلة؟ ولمّا أتى الشتاء، وغدَت السماءُ داكنة، وهَوى الضباب على المدينة، وتساقط المطرُ رذاذاً صقيعياً، كانت صديقتي تصرخُ خلال كلّ الليالي، وأثناء النهار كانت تنعزلُ هادئة وحزينة وهي تُغمغمُ مقطعاً واحداً مثل عجُوز تتأفّف

في زاوية ما. غدت باردة، كان النوم معها يعني أن ترتعش الليل كلّه، وأن تشعر كيف يتجمّد شيئاً فشيئاً الدمُ والعظامُ والأفكار، أصبحت عميقة ومنيعة ومُكفهرّة، كنتُ أخرج باستمرار وكانت غياباتي في كلّ مرّة تغدو أكثر امتداداً. هي كانت في زاويتها تزعقُ طويلاً، كانت تقضمُ الجدران بأسنانها الحادّة ولسانها الأكال، وتهدمُ الأسوار. كانت تمضي الليالي مُسهدة وهي توجّه إليّ اللوم، كنتُ أرى الكوابيس، وأهذي مع الشمس ومع الشطآن الحارقة وأحلمُ بالقطب وبأن أصيرَ قطعة كبيرة من الثلج، مُبحراً تحت سماوات سوداء في ليال مديدة مثل الشهور، كانت تصبُّ عليّ شتائمَها ولعناتها وهي تضحك، فتملأ البيتَ بالقهقهات والأشباح، كانت تُنادي الوُحوش من الأعماق، عميانَ سريعين وغلاظاً. ومُعبأة بشحنات كهربائيّة كانت تُفحّمُ كلَّ ما تلمسه، وتُفسدُ بالحامض كلّ ما تحتك به. لقد غدَت ذراعاها العَذبتان حبالاً خَشنة تخنقني، وصارَ جسدُها اللين والمائل إلى الاخضرار سوطاً لا يَرحم، يجلد ويجلد. هربتُ. كانت الأسماك الرهيبة تضحكُ ضحكات شرسة.

وبعيداً في الجبال، ما بين أشجار الصنوبر العاليةِ الوهدات تنفّستُ هواءً بارداً وناعماً يُشبه فكر التحرّر. بعد انصرام شهر، عُدت. كنتُ ثابتَ العزم، كان الجوّ شديدَ البرد حدّ أني عثرتُ فوق مرمر المدخنة قرب النار المُطفأة تمثالاً من الثلج، لم يُثر مشاعري جَماله الكريه، وضعتُه في كيس كبير من الكتّان، وخرجتُ إلى الشارع بالنائمة محمولةً على ظهري، وفي أحد مطاعم الضواحي بعتُها لصاحب حانة من أصدقائي، شرعَ مُباشرةً في تفتيتها قِطعاً صغيرة، ووضعها بعناية في براميل حيث يتمّ تبريد الزجاجات.

الجهة الخلفيّة

خوان خوسيه مياس(1)

حلمتُ أني كنتُ أخرج إلى الشارع وأنّ كلّ شيء كان يُديرُ ظهرَه إلى الخلف. كان يُرَى فقط الجُزءُ الخلفيّ من البيوت وقفَا الأشخاص ومؤخّرات الكلاب وذيول الطيور. كنتُ أسيرُ في زقاق خلفيّ بدلا من أن يَعرض الواجهات الزجاجيّة للمتاجر، يُبرزُ جانبُها الخلفيّ من الجهة المُعتمة. كان العالَم قد أعطاني بظهره. أدَرتُ رأسي إلى الوراء وأنا أفكّر بتلك الطريقة، أنني سأرى أنوفاً وعيوناً وأفواهاً وأجفاناً، ولكنني مَهما نظرتُ وأينما نظرتُ فلن يكون ثمّة سوى الرقاب، الأرداف، وعظام الأكتاف. بمُجرّد أن استسلمتُ للفرجة، أدركتُ الاهتمام القليل الذي نوليه إلى هذا الجُزء من الجسد ومن الواقع. كنتُ أعملُ في الحُلم مُساعداً لِمُصَوّر كان يُصور فقط الجانب الخلفيّ من الأشخاص والأشياء. وبطبيعة الحال، كنتُ أرى فقط الجُزءَ الخلفيّ من المُصور. كانتْ جدران مَرسَمه كلّها مليئة ببورتريهات أشخاص تُبرزُ فقط أقفاؤهم. ووسط كلّ تلك الصور، رأيتُ شجرةً كانت تبدو نادرة، فالأشجارُ ليس لها جزءٌ أماميٌّ ولا جُزءٌ خلفيٌّ. فهل جعلها ذلك أكثر كمالاً؟

كنتُ أعيش مع زوجتي وأربعة أبناء لي، كلّهم يُديرون لي ظهورَهم. لم أكن أعرف ما لون عيونهم، أو ما إذا كانوا وسيمين أو قبيحين. كان لزوجتي كتفان ليّنتان، نتوءان صغيران كان يُعجبُني أن أداعبهما. وكانا يُثيراني تقريباً مثلما يُثيرُني الثديان. ولكني مهما كنتُ أحاولُ، عندما كنّا نمارس الحبّ، أن أكون في وضع من شأنه أن يَسمح لي أن أراها من الأمام، كانت هي تتصرّف بطريقة ما تُظهرُ لي دائماً نفسَ الجانب. وكان لدينا كناري كانت تواجهني دوماً مُؤخّرته، وإن كان لا يتوقّف عن الغناء. والقفص، كان مثل الشجرة، لا يملك إلاّ جانباً واحداً، فقد كان دائريّاً ومُتماثلاً بشكل كلّيّ. في الليل، وبعد تناوُل العشاء كنّا نجلس لمُشاهدة التلفزيون، ولكني فقط كنتُ أرى أنبوبه، ورقاب أفراد أسرتي. والثلاجة، بما أنّها كانت تُدير ظهرها، فقد كان بابُها مُلتصقاً بالجدار، لذلك كانت تبدو، على الأقلّ بالنسبة إلي، غير صالحة للاستعمال تماماً. وقد كانت الحياة اليومية مليئة بالمصاعب، وبدلاً من تنظيف

أسناني بالفرشاة، كنتُ أكتفي فقط بفركها بالجُزء الخلفيّ من الفرشاة. ولكي أخرج معجون الأسنان كان يجبُ أن أضغط مؤخّرة الأنبوب. وبطبيعة الحال، كنتُ ألبسُ القمصان معكوسة، وهو ما كان يُشكّل تعذيباً عندما كنتُ أقفلُ أزرارَها. والأسوأ من ذلك، كانت الكُتب، لأنه لم يكُن مُمكناً أن تُفتَحَ إلاّ من الآخر. في البداية كنتُ أقرأها من الآخر إلى الأوّل، ولكن مع مُرور الوقت بدأتُ أقرأها مُباشَرة من العكس. أعني أنّ الواقع تغيّرَ فجأة تغيّراً دقيقاً، وإن بشكل طبيعي أقرب إلى الأشياء الأكثر نُدرة كما تُعاشُ في الأحلام، بحيث انطلاقاً من لحظة مُعَينة لم تعُد الأشياء معكوسة وحسب بل مقلوبةً تماماً. أفراد عائلتي، على سبيل المثال، كانوا مثل الكناري يحملون أحشاءَهم خارج الجسم. وبدلا من أن يقولوا صباح الخير كانوا يقولون ريخالا حابص. وكنت أنا أجيب مُتكيّفاً مع الوَضع: ريخالا حابص، وأنا أعرفُ أنّ الأمور كانت رأساً على عقب.

خرجتُ إلى الشارع فرأيتُ أنه قد انقلبَ مثلما يحدُث مع جوزَب. كان داخلُ المباني الكبرى كلّه قد غدا في الهواء الطلق. كنتُ أرى الأشخاصَ، إن كان يُمكن أن نسمّي هذه الكوارث كذلك، من ممرّات بُيوتهم. لم تكن هناك واجهاتٌ. فقد صارت الواجهات الآن في الجهة الداخليّة. كان كلُّ شيء فوضى من الأنابيب والأحشاء، والبنى التحتيّة في الهواء الطلق.

استيقظتُ دون إجهاد، ولكن في استغراب. قبل أن ألبس الجوارب، تأكّدت أنّها كانت بشكل سليم. فعلتُ الشيءَ نفسَه مع القميص الداخليّ ومع القميص. ودّعتُ زوجتي وأخذتُ السيارة، ففي هذا اليوم كنتُ مُلزَماً بالسفر. وبما أنّه كان لديّ الوقت الكافي، بدلاً من أخذ الطريق السريع أخذتُ طريقاً ثانويّاً. تنبّهتُ أنّ مشهد هذا الطريق كان إلى حدٍّ ما الجُزءَ الخلفيّ الذي يتمّ استحسانه من الطريق السريع. ودون أن أنتبه إلى ذلك، كنتُ قد عُدتُ مرّة أخرى مُستيقظاً إلى الجهة الخلفيّة. ابتسمتُ مُتخيّلاً أنّ الخطوة المُقبلة ستكون السفر في الاتجاه المُعاكس للواقع. وأعقبَ الابتسامة حركةٌ من الهلع. وحدثَ أن مَررتُ جنبَ محطّة للبنزين كانت تُديرُ ظهرَها للطريق (ربّما كانت الجهة الأماميّة منها مُوَجّهة نحو الطريق السريع). ورأيتُ أيضاً الواجهة الخلفيّة للعديد من المطاعم. وفهمتُ للتوّ أنه يجب عليّ العودة مُباشرة إلى

الطريق السريع، ولكني لم أكن أعرف كيف السبيل إلى ذلك. لم تكُن هناك أيّ إشارة تدلّني. تساءلت: وماذا لو أتنازل عن بلوغ وجهتي وأسافر في الجهة الخلفيّة؟ ذاك ما فعلتهُ، وخضعتُ له، لكن بخوف شديد.

أدركتُ، في نهاية الرحلة، إلى أيّ مدى نحن مُتعوّدون على العيش في جُزء واحد من الواقع فقط. إنّ هذا يُعتبر خطأً شنيعاً، لأنّنا في ذلك نصيرُ كما لو كُنّا لا نسكُن سوى جزءٍ من بَيتنا، أو من جسمِنا.

الجنّة حافلة

عمل طوال حياته في متجر للحدائد وسط المدينة. في الثامنة والنصف كان يأتي إلى محطّة الحافلات ويَركبُ الحافلة الأولى التي لا تتأخّر أكثر من عشر دقائق. أمّا هي فقد عملت طوال حياتها أيضاً في محلٍّ للخردوات. اعتادَت أن تركبَ الحافلة ثلاث محطّات من بعده، وهي تنزلُ عادةً قبله بمحطّة واحدة. كانا يُغادران العملَ في أوقات مُختلفة، إذ في المساء لا يتزامنُ أبداً خروجُهما.

لم يَسبق قط لأحدهما أنْ تحدّثَ إلى الآخر. وإذا كانت هُنالك مقاعدُ فارغة، يَجلسان بشكل يجعلُ الواحد منهما قادراً على أن يَرى الآخر، ولمّا تكون الحافلة مُمتلئة، يَجلسان في الجهة الخلفيّة وهُما يتأمّلان الشارع، فيُحسّ كلُّ واحد منهُما الحضورَ القريب للآخَر.

كانا يأخذان الإجازة في الشهر نفسه، في شهر أغسطس، ولذلك فإنهما في الأيام الأولى من أيلول كانا يَنظران إلى بعضهما بشكل أكثر حدّة منه خلال بقية العام.

هو اعتاد أن يعود أكثر شمرة من الإجازة، أمّا هي فكانت بشَرَتها جدّ بيضاء وبالتأكيد أكثر حساسية قليلاً. لا أحد منهُما على الإطلاق توصّلَ إلى معرفة ما كانت عليه أحوال حياة الآخر: إن كان مُتزوجاً، إن كان لديه أطفال، أو إن كان سعيداً في حياته.

طوال كلّ تلك السنوات كانا يُلقيان رسائلَ غير لفظيّة يُفكّرُ تأمّلها بشكل واسع. هي على سبيل المثال، اعتادَت أن تحملَ معها في حقيبتها رواية كانت تقرؤها أحياناً،

أو تتظاهرُ بقراءتها. وقد بدا له ذلك علامة على حساسية، فرَدّ هو على ذلك بشرائه يوميّاً للجريدة، يَحملها مفتوحة على الصفحات الدوليّة، كما لو أنه يرغبُ في أن يُلمّحَ إلى أنّه رجلٌ على علمٍ ومعرفةٍ ومُنشغلٌ بالمشاكل التي تحدُث في العالم.

وإذا حدثَ في لحظة ما ولأيّ سببٍ من الأسباب أن تغيّبتْ عن ذلك الموعدِ غير المُتفق عليه، كان يَفقدُ الاهتمامَ بكلّ شيء، ويترك الجريدة على مقعد الحافلة دون أن يقرأها.

وهكذا فخلال فترة من الوقت لمّا كانت هي مريضة، أصبح هو نحيلاً، إذ فقدَ عدّة كيلوات من وزنه، وأهملَ نظافته الشخصيّة حتى إنّهُ قدْ تمّ لفتُ انتباههِ إلى ذلك في متجر الحدائد: فشخصٌ يعملُ مع عامّة الناس مُلزمٌ بأن يَحلقَ ذقنَه يوميّاً. ولمّا عادت أخيراً، بدا كلاهما كالمُنبعِثِ من الموت: هي لأنها قدْ أجريَتْ لها عمليّةُ جراحَةِ حياةٍ أو موتٍ بإحداثِ ثقْبٍ مَعَويّ، وهي لم تكن من قبلُ قد اشتكتْ منه حتى تتغيّبَ عن الموعد، وأمّا هو، فلأنه كان مريضاً بالحبّ والكآبةِ. لكنّهما في غضونِ أيّامٍ بَعدما عادا لرؤية بَعضهما البعض ثانية، استعادَ كلاهُما وزنَهُ وبدأ يَعتني بنظافته من أجل الآخر بنفس عنايته السابقة.

في ذلك الوقت كانت قد تمّت ترقيته إلى مُدير متجر الحدائد، فاشترى مُفكّرَة، وبدأ حينئذ يجلسُ -ما أمكنه ذلك- في الموضع الأقرب منها ويفتحُ المُفكّرة، وبقلم كان يقومُ بتدويناتٍ مُعقّدةٍ تُشيرُ إلى العديد من الالتزامات. بالإضافة إلى ذلك، بدأ يَرتدي ربطة عنق، وهو ما أجبرَها وهي التي كانتْ دوماً تلبسُ بشكل أنيق جدّا، أن تعتني أكثر بمُتمّماتِ لباسِها. في ذلك الحين كان كلُّ واحد منهما قد تجاوزَ مرحلة الشباب، أمّا هي فكانت قد بدأت تضعُ أقراطاً كبيرةً وجِدَّ لافتةٍ للنّظر تجعله يُجنُّ من شدّة الرغبة والولع، وبدلاً من أن تخبوَ رغبتُهُ مع مُرور الأعوامِ كانت تزدادُ، يُغذّيها الصمتُ وغياب المعلومات التي كان يَمتلكها كلٌّ منهُما عن الآخر.

مضتْ فصولُ خريف، وربيع، وشتاء. أحياناً كان المطرُ يتساقط وتسحقُ الريح قطرات المطر على زجاج نوافذ الحافلة وهي تدغدغُ المشاهد الحضريّة للمدينة، ولذلك كان هو يتخيّلُ أنّ الحافلة كانتْ بيتاً لهُما، فقد قام ببعض التقسيمات الخياليّة

لمكانِ المطبخ وغرفة نومهما وغرفة الحمّام.

وكان يتصور الحياةَ سعيدة: كانا يعيشان على متن الحافلة التي لم تكُن تكفّ عن الدوران حول المدينة، وكان المطر أو الضباب يَحميهما من نظرات الغرباء. لم تكن هناك لا أعياد الميلاد ولا الصيف، ولا أسابيع الآلام. في كلّ مرّة يتساقط فيها المطر، وهما يُسافران وحيدين إلى الأبد، مُتعانقين، دون أن يَعرفا شيئاً عن نفسهما.

وهكذا كانا يكبران في السنّ، ويشيخان دون أن يكفّا عن النظر إلى بَعضهما البعض. وكلّما ازدادا كبراً في السنّ، ازداد حُبّهُما لبَعضهما البعض. وكلّما أحبّا بَعضهما، ازدادتْ لديهما صعوبة اقترابِ أحدهما من الآخر.

وفي يوم ما قيل له إنه يجب عليه أن يُحالَ على المعاش، فلمْ يفهم معنى ذلك، ولكن في كلّ الأحوال فقد أعدّوا له الأوراق وتوسلوا إليه ألاّ يَعود ثانية إلى متجر الحدائد. ولفترة مُعَينة من الوقت واصلَ الركوب في الحافلة في موعده المُعتاد إلى أن بلغ نقطة لم يَعُد معها قادراً على تبرير تلك النزهات الغريبة لزوجته. وفي كلّ الأحوال، فبَعد أشهر قليلة أحيلتْ هي أيضاً على المعاش ولم تغد الحافلة بيتاً لها.

كلاهُما أصابَهُ الوَهَن بشكل مُنفصل عن الآخر. مات هو بعد تقاعُده عن العمل بثلاث سنوات، وماتت هي بَعد ذلك ببضعة أشهر. ومن قبيل المُصادفات دُفنا في مدفنين مُتجاورين حيث بالتأكيد كان كلُّ واحدٍ منهُما يشعرُ بقربه من الآخر، ويحلُمُ أنّ الجثة حافلةٌ بلا مَحطّاتِ توَقُّف.

بيت إلى الأبد

إينريكي بيلا ماتاس

لم أعرف دوماً عن أمّي إلاّ القليل. قتلها شخص ما في بيتنا ببرشلونة بَعد ولادتي بيومين. كانت الجريمة لغزاً حقيقيّاً اعتقدتُ أنه قد تمّ حلّه يومَ أكملتُ العشرين من عمري، لكنّ والدي طالبَ من فراش موته بحُضوري، قال لي إنّه ولعدم وثوقه في النعوت والصفات، فقد كان يدنو من اللحظة التي سيرحلُ فيها مُطلقاً، إلا أنه قبل ذلك كان يرغب في أن يحكيَ لي شيئاً يَعتبرُ أنّه من المهمّ أن أعرفه. أتذكّرُ أنه قال لي: إن الكلمات ذاتها عادة ما تخونُنا وبهذا يكون كلُّ شيء قد قيل، لكن قبل ذلك يجبُ أن تَعلمَ أنّ أمّك ماتت لأنني أنا دبّرتُ الأمرَ هكذا.

فكّرتُ مُباشرةً في قاتل مأجور، وبَعد انصرام اللحظات الأولى للارتباك أخذَت اعترافاتُ والدي مأخذ الجدّ واليقين. ففي كلّ مرّة كنتُ فيها أفكّر في البلطة الدامية كنتُ أحسُّ أن العالم كان يغرق أمام قدميّ، وخلفهما كانت تبقى مَرسومة، بشكل مُثير للشجون وإلى الأبد، مشاهدُ الفرح والامتلاء التي كانت قد جعلتني أرسمُ لوالدي تلك الصورة الأبويّة المثاليّة، تلك الصورة الأسطوريّة لرجُلٍ يستيقظ دوماً قبل الفجر، وهو في منامته، كتفاه يُغطّيهما بشال والسيجارة بين أصابعه وعيناه ثابتتان على دوارة الريح في المدخنة، تنظران إلى مولد النهار مُستسلمتين بانتظام لا يهدأ، وبدأب هائل، للطقس المُتفرّد في خلق لغته الخاصّة عبر كتابتِهِ كتابَ مذكراتٍ أو بيانَ نوستالجياتٍ. فكّرتُ دوماً أنها بَعد موته ستنتقل إليّ لتشكل جزءاً من ميراثي الدافئ وإن كان ميراثاً رهيباً.

لكن في يوم عيد الميلاد ذاك، في بور دي لا سيلفا، هربَ من ذلك الميراث كلُّ ميل إلى الحنان وعرفتُ فقط الفزع والرّعب اللانهائي للتفكير بأنّ أبي، وبجانب التركة، كان سيُورثني الحكاية المُدهشة لجريمة قد وقعت في الأصل خلال الأيام الأولى من نيسان ١٩٤٥، سنة واحدة قبل ميلادي، حينما كان بَعدُ لا يزالُ يشعرُ بأنه شابٌّ ولديه الحماس للإقدام على مُغامرة الزواج بعد فشلين حاسمين، كتبَ رسالة إلى شابّةٍ مِنْ أمبوردا كان قد تعرّف إليها صدفة في فيغيراس، ويبدو أنها كانت تتوفّر على كلّ

الشروط التي ستجعلُ منه إنساناً سعيداً، فهي لم تكن فقط فقيرة ويتيمة، وهو ما كان يُسهِّلُ عليه الكثير من الأشياء، إذ كان قادراً على أن يُوفِّر لها الحماية وأن يُقدِّم لها ثروة ماديّة مُحترمة، وإنما كانت أيضاً جميلة وعذبة جداً، كانت شفتُها السُّفلى هي الشفة الأشهى في الكون، وكانت على الخصوص ساذجة وخذوماً فوق العادة، أي أنها كانت تمتلك إحساساً قويّاً بالخضوع للرجُل، وهو شيء كان يُثمِّنُهُ على درجة عالية، بسبب الجحيمين الزَّوجيَّين السّابقين اللذين اصطلى بنارهما. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ زوجته الأولى، مثلاً، في نوبة غضب غير عاديّ، قد أعطبت إحدى أذنيه. لقد كان والدي غير سعيد في زَواجَيْه السابقين إلى درجةٍ لا أحد ينبغي أن يُفاجأ أنه في بحثه عن امرأة ثالثة، كان يرغب أن تكون حلوة وخاضعة، وكانت هذه الشروط كلها تجتمعُ في والدتي. كان يَعلمُ أن رسالة بسيطة، مصوغة بعناية، يُمكن أن يكون لها أثر هادئ، وذلك بالفعل ما حدَث. كانت الرّسالة عاطفية جدّاً وكانت مكتوبة بمهارة حتى إن والدتي لم تتأخر في الرحيل إلى برشلونة. ووسط متاهة من الأزقة الضيقة في الحيّ القوطيّ، دقّت بوابةَ القصرِ الفسْوَدّ لوالدي، والذي على ما يبدو لم يستطع ولم يرغب في أن يُخفي انفعالاته لمّا رآها هنالك أمام البوابة، وهي تُمسكُ تحت المطر حقيبتها الزرقاء التي تركتها تسقط على البساط، بينما هي تسأل بصوت مُتواضع ومُرتعش ليتيمةٍ عمّا إذا كان بإمكانها أن تدخُل.

كانت السماء تُمطر في ذلك اليوم ببرشلونة - قال لي أبي من فراش الموت-، وهو ما لم أستطع أن أنساه أبداً، لأنني لمّا رأيتُها تعبُرُ عتبة الباب بدا لي أنّ المطر كان شرِساً في وركيها وشعرتُ أنني قد تمّتِ السّيطرةُ عليّ من خلال النزوة الإيروتيكية الأكثر كثافة في حياتي. ويبدو أن تلك النزوة لم تغد تحدُّها حدودٌ لمّا أخبرَتْهُ أنها كانت خبيرةً في فنّ رقصةِ لاتيرانا، وهي رقصة قروسطيّة إسبانية في طور الانقراض. وتحت إغراء تلك المفارقة الخفيفة، أمرَ والدي لِلتوّ أن يتمّ تنفيذُ ذلك الفنّ، وهو ما قامتْ بتنفيذِهِ بكُلّ سُرورٍ وحتّى الإنْهاكِ والدتي الحريصةُ على إرضاءِ جميع رغباتِهِ وبعناية كبيرة الآن، وانتهَتْ مُتعَبة بين ذراعي الرَّجُلِ الذي وبلا أدنى تردُّدٍ أو شكّ، أمَرَها بمَوَدّةٍ أن تتزوجَهُ اليومَ قبل الغدِ. وفي تلك الليلة نفسها ناما معاً. فأمّا والدي، الذي كان يُهيمن عليه التحذلق العالي الذي يُصاحِبُ بعضَ حكايات العشق،

CamScanner

فقد كان لديه انطباعٌ أنّ النّوم إلى جانبها، ومثلما كان يتصور، هو مثل النوم مع طائرٍ، فقد كانت تُزقزقُ وتُغنّي على الوسادةِ وكان يبدو له أنّهُ ليسَ ثمّةَ صوتٌ يُغنّي مثلَ صَوتِها، وأنّ عظامَها ذاتُها مثل شفتها السّفلى وأغانيها، كانت هَشّةً مثلَ الطّيور.

- وفي تلك الليلة، في ظلّ وَشوَشَةِ المَطرِ البرشلونيّ أنْجَبْناكَ، قال لي فجأة والدي بعينين جاحظتين جداً.

وسبَقَ تَنفُّسٌ بَطِيءٌ جدُّ مُقلقٍ دَوماً لدى المُحتضَرِ، الطّلبَ المِلْحاحَ لقدحِ الفودكا. رفضتُ أن أستجيب له، لكنّه بعد أن هدّدَ بعدمِ مُواصلة حكايته، وكاحترازٍ مَحْضٍ من احتمال تنفيذِهِ المُمكن لتهديده، هرعتُ شبه راكضٍ إلى المطبخ، مُحاولا ألاّ تراني العمّة كونسويلو وأنا أفعلُ ذلك، وملأتُ قدَحين من الفودكا. أعرف اليوم أن كلّ قلقي وانشغالي كانا سخيفيْن، لأنّ العمّة كونسويلو في تلك اللحظات كانت تعيشُ فقط لتغذية مَكيدتها أمام لوحة قاتمة في الصالون، تُمثل الغنج السماويّ لملائكة وهُم يستعملون سُلّم الارتقاء. لقد كانت تعيشُ فقط من أجل تلك اللوحة، ومن المُحتمل جدّاً أن يكون ذلك الهاجس قد صرَفها عن أيّ هاجس آخر: القلقُ المُستمِرُّ لمعرفتِها أنّ أخاها الذي كانَ يتعقّبُه هذا المَرَضُ الوديعُ، لكن الذي لا يرحَمُ، كانَ يُحتضَرُ. أما بالنسبة له هو فقد كان في ذلك الوقت يعيشُ فقط لتغذيةِ خُدْعةِ حكايتِهِ.

فلمّا أطفأ غلّة عطشه، تابعَ والدي حكيَه عن رحلة شهر العسل التي عرفت أحداثُها مسرحين، إسطنبول والقاهرة. ففي المدينة التركية لاحظ السلوك الشاذ الأول في تصرّفات زوجته العذبة والمُستسلمة، ومن جهتي لاحظتُ الشذوذ الأول في حكاية والدي، فقد كان يخلطُ بين هاتين المدينتين وبين باريس ولندن، لكني فضّلت عدم مُقاطعته عندما سمعتُهُ يقول لي إن سلوكَ والدتي الشاذ لم يكن بالضبط غيباً، ولكنّه كان سلوكاً من قبيل هواية خاصّة غريبة. فقد كانت تحبّ جَمْعَ الخبز.

في إسطنبول، ومُنذ اللحظة الأولى، تحوّلَ الدخول إلى المخابز إلى رياضة غريبة. كانا يشتريان الخبز دون حاجة أو جدوى تماماً، إذ لم تكن الغاية منها أن تُستغلّ للأكل، وإنما لزيادةِ وزنِ الكيس الكبير الذي كانت تقعُ فيه المجموعةُ الخاصّةُ لأمي. بعد ذلك سرعان ما احتجّ والدي وتساءلَ بتوتر لافت للنظر إلامَ يعودُ ذلك العشقُ

الغريبُ للخبز.

- لابدّ أن يكون ثمة شيءٌ لإطعامِ الجيش أجابَتْ والدتي بشكلٍ مُقتضبٍ، وهي تبتسمُ له كمَنْ يُتابعُ خطواتِ مجنونٍ.

- لكن يا ديانا، أيُّ نوعٍ من الهزْلِ هو هذا؟ تمتمَ والدي مُرتبكاً.

- يبدو لي أنك أنتَ الذي تمزحُ بهذه الأسئلة السّخيفةِ جداً. أجابَت هي في أجواء غيبوبةٍ، وهي ترسمُ نظرةً عذبةً وحالمةً لحسيري البَصرِ. في إسطنبول، بقِيَا سبعة أيامٍ، بحسَبِ والدي. ولمّا وصلا القاهرة كانت والدتي تحملُ في كيسها الكبير حوالي أربعين رغيفاً من الخبز. وبما أنّ الوقتَ كان في ساعةٍ مُتأخرةٍ من الليل، فقد سَعِدَ والدي لمعرفتِهِ بأنه في مَأمنٍ مِنَ المَخابزِ القاهريّة، بل إنه تطوّعَ لحَملِ الكيس ولم يكُن يعرفُ أن تلك السّاعاتِ ستكونُ آخِرَ ساعاتِ سعادتِه الزّوجيّة. تناولا العشاء على متن المَركَبِ الرّاسِي على جانب ضفّة النيل، وانتهيا يرقصان ما بين كؤوس الشمبانيا الورديّة، وتحتَ أضواءِ القمرِ في شرفة غرفة الفندق. لكن، ساعاتٍ بعد ذلك استيقظ والدي في مُنتصفِ الليلة القاهريّة فزِعاً واكتشفَ لدهشتِهِ العظيمةِ أنّ والدتي كانت مُسرنمة، وكانت ترقصُ بشكلٍ مُحتدمٍ على الكنبةِ رقصة التيرانا. حاولَ أن يُحافظَ على هدوئه وأن ينتظرَ بصَبرٍ أن تستنفدَ كُلَّ قواها وتعودَ إلى السرير، وأن تغرقَ مِن جديدٍ في نومها العميق. لكن لمّا حدَثَ هذا، انضافتْ إلى ما سَلفَ أسبابٌ جديدةٌ للقلقِ. لقد شرعَت والدتي فجأةً في الحديثِ وهي نائمة، فالتفتَتْ إليه وقالتْ له شيئاً، وفي لمحِ البصَرِ، دَوّى صَوْتُ أمرٍ حادٌ لا هوادة فيه:

- رَصّ الصُّفُوف.

كانتْ دهشةُ والدي لم تغادرْهُ بَعدُ لمّا سَمِعَ:

- نصف دورة. فرِّق الصفوف.

لمْ يستطعِ النوم طوال الليل، وساوَرَهُ الشك في أن زوجته في المنام، كانت تخونه مع فوج عسكريّ كامل. في صباح اليوم التالي، كانت مواجَهة الواقع تقتضي من أبي أن يَقبلَ أنّ زوجتَهُ كانت خلال السّاعات الأخيرة المُنصرمَةِ قد رقَصَتْ رقصة التيرانا،

وأنها تصرّفتْ مثل عقيدٍ مُنزعِجٍ يَبدو أنّ كُلّ ما كان يهمُّه هو إعطاءُ الأوامر، وتوزيعُ أرغفةِ الخبز بينَ الجنودِ فقط. وكان عزاؤه أنّ زوجتَهُ خلال اليومِ كلِّهِ قد استمرّتْ عذبةً ومُستسلِمة كالمُعتاد. ولكن هذا لم يكن عزاءً كبيراً لأنه على الرغم من أنّ السرنمةَ المُتجبِّرَةَ لمْ تُعاوِدِ الظُّهورَ في الليالي القاهريّة، إلا أنّ المُؤكّدَ هو أنّ الأوامرَ قد زادتْ وبشكلٍ أكثرَ حدّة.

- وبدأتْ لمسة من ديانا تتحوّلُ إلى محنة حقيقيّة، قال لي والدي، فوالدتك كُلَّ يومٍ، ودقائقَ قليلة قبل أن تستيقظ، كان شخيرُها الذي يتبعُ الغطيطَ يبدو كما لو أنّهما يُحاكيان صوتَ نفيرٍ لا لَبْسَ فيه أثناءَ الفجر.

هل كان والدي يَهذي؟ على العكس تماماً. كان يعي جيّداً ما كان يقول، وكان رائعاً أيضا أن أرى كيف أنّه، وهو على مشارف الموت، بقيَ مُحافظاً تماماً على روح السخرية المُعتادة فيه. هل كان يبتدع؟ رُبّما، ولذلك حاولتُ أن أنظرَ إليه بعيونٍ غير مُصدِّقة، لكنّه لمْ يَبدُ لي أنّه قد تأثرَ، واستمرّ جاداً وثابتاً في حكايته.

حتى أنّها عندما كانتْ تستيقظُ مرّةً أخرى تغدو من جديدٍ الزوجة العذبة والمُستسلمة، على الرغم من أنها في بعض الأحيان، بالقرب من مخبزة أو بمجرّدِ سَيرِها في الشارع، كانت تنفلتُ منها نظراتُ مُكتئبةُ غريبةُ توجّهُها، في تلك القاهرةِ على عتباتِ الحرب، إلى الجنودِ وهُم يقومون بالحراسة خلْفَ المتاريس جنبَ النيل. بل وفي صباحِ يومٍ مَا جرّبَتْ بعضَ الخطواتِ مِنْ رقصة التيرانا أمام الجنود. أكثر من مرّة كان والدي يُحسّ برغبةٍ لمُواجهةِ المُشكلِ مُباشرةً بالتحدّثِ إليها، بأن يقول لها على سبيل المثال:

- أنتِ لديكِ على الأقلّ انفصامٌ في الشّخصية. فأنتِ مُسرنمة وبالإضافة إلى ذلك أنت ترقصين رقصة التيرانا فوق الكنبة، وتجعلين سرير الزوجية حقلاً للتداريب العسكريّة.

لم يقُل لها شيئاً، لأنه كان يخشى إذا ما تكلّم معها عن كل ذلك ربّما يكون مؤذياً لها، والشيءُ الوحيدُ الذي يُمكن أن يُحقّقه هو أن يوَجّهها إلى دليلٍ على مَلمحٍ خَفيّ مِنْ طبعِها: بعضِ مواهِبها في القيادة. لكن في يوم ما، وهُما يتجولان فوقَ الجمَالِ

بالقربِ من الأهرامات، ارتكبَ والدي خطأ حين أوحى لها بحبكة قصّةٍ قصيرةٍ كان قد خطّطَ لكتابتِها:

- انظري، يا ديانا. إنّها حكاية زوجين مُنسجمين كثيراً، بل يُمكنني أن أتجرّأ على القول إنّهما مثاليان. ومثل كلّ الحكايات السعيدة، فإنّه لن يكون ثمّة أهمية كبرى في أن تُحكى لولا أنّها كانت تتحوّلُ في كلّ ليلة أثناءَ الحُلمِ إلى عسكريّ.

لم يكن بَعْدُ قد أنهى جُملتَهُ حينما طلبَت منه والدتي أن يَتِمّ إنزالُها عن مَتْنِ الجَمَلِ، وبعد أن حدجَته بنظرةٍ تحدّ، أمَرَتْهُ أنْ يَحمِلَ كِيسَ أرغفةِ الخُبزِ التركيّة والمصريّة. أحسّ والدي حالةَ رُعبٍ لأنّهُ مُنذُ ذلك الحين لن يكونَ فقط محكوماً عليه بِتَحمُّلِ كوابيس القمح الأجنبيّ، ولكن أيضاً سوف يتلقّى الأوامرَ تباعاً، الأمرَ تِلْوَ الآخَرَ.

في رحلة العودة إلى برشلونة، كانت والدتي تأمُرُ بِسُلْطَةٍ مَكينَةٍ جَعَلَتْها تلتبِسُ عليهِ بالقائدِ العامّ لِلْفِيلقِ الأجنَبِيّ، وأغرَبُ ما في الأمرِ والمُضحكُ أيضاً أنّها بَدَتْ مُنذ اللحظة الأولى مُتماهية تماماً مع ذلك الدور، لأنها بقيَت كما لو أنّها غائبة، وقالت إنها كانت تحسّ نفسَها تائهة في عالم تُزَيّنُه بُسُطٌ جزائريّةٌ ثقيلة، مع مُرشحات للتّخفيفِ من شرابِ العَرَقِ وشراب الأبسنت ونارجيلات الكِيفِ، وهي تفسَحُ أفقَ الصّحراء من اللّيلِ المُضِيءِ للقريةِ المُنغرسَةِ في الواحة.

وعند وصولهما إلى برشلونة، وبَعد استقرارهما في القصر القديم للحيّ القوطي، ذهب الأصدقاءُ لزيارتهما وأصابَتْهم مُفاجأةٌ كبرى لمّا رأوها تدخّنُ مثلَ رَجُلٍ، السيجارة ينبعثُ دخانها وتعلقُ بمقرن شفتيها، وأمّا والدي فقد رأوه بملامحَ كليلةٍ وملساءَ مثل الحصَى المصقول بالأمواج، نصفُ أعمى بشمس الصحراء، وقد صار جُندياً عجوزاً في الفيلقِ الأجنبيّ يُراجِعُ الصُّحُفَ الاستعماريّة القديمة.

- والدتك كانت جنرالا -خلص أبي-، ولم يكن لدَيّ أيُّ خيارٍ سوى الانتصارِ في المعركةِ من خلال الاتفاقِ مع شخصٍ لقتلِها. لكن أجل، انتظرتُ أنْ تُولدَ أنتَ، لأنّني أردتُ أن يكونَ لدَيّ وريثٌ. كنتُ دوماً واثقاً بأنني يومَ أعترفُ لك بالجريمة، سوف تعرفُ كيف تتفهّمُ أمري.

كلّ ما كنتُ قد استوعبته بالتمام، حتى تلك المرحلة من الحكاية، هو أنّ والدي كان في موقفٍ عظيمٍ على مشارفِ الموت، وكان يُبدِعُ بلا توقُّف، وفيّاً لحاجتِهِ المستمرّةِ في سَرْدِ الحكاياتِ. لا دُنُوُّ الموْتِ استطاعَ أنْ يُثنيه عن لذّةِ إبداعِ الحكايات. وكان لديّ انطباعٌ بأنّهُ كانَ يَرغبُ في أنْ يُورثني بَيتَ التَّخييل، ونعمة أنْ أسكُنَ فيهِ إلى الأبد. لذلك، وأنا أصعدُ مَشياً إلى عربَةِ كلماتِهِ، قلتُ له فجأة:

- لا شك أنّك شبّهتني بآخَرَ. فأنا لستُ ابنك. أما بالنسبةِ إلى العمّةِ كونسويلو فهي ليستْ سوى شخصيةٍ أنا الذي خلقتُها.

نظرَ إليّ بنوعٍ مِنَ القلقِ إلى أنْ تجَاوبَ معي في آخرِ المَطافِ. شدَّ على يدَيّ مُتأثّراً بحماس، وابتسمَ لي ابتسامةً سعيدة، ابتسامةَ المُقتنِع بأنّ رسالتَهُ قد وصَلتْ إلى مَرفئِها الآمِن. مع مَخزونٍ من الحنين، كانَ لِلتّوِّ قد أورثني بيتَ الظِّلالِ الأبديّةِ.

والدي، الذي كان في أزمنة أخرى يُؤمِنُ بأشياء وأشياء عديدةٍ لينتهي في الأخير غيرَ واثقٍ من أيّ شيءٍ، كانَ يَمنحُني يقيناً واحداً ونهائيّاً: يقين الإيمان بالخيال باعتباره خيالاً، وأنْ أعلمَ ألاّ شيءَ آخرَ موجودٌ، وأنّ الحقيقةَ الزّائفةَ تفرِضُ أن يكونَ المرءُ على وعْيٍ بأنّ الأمرَ يتعلّقُ بخيالٍ، وأن تعرفَ كيف تؤمنُ به.

عبر السطوح

خوليو رامون ريبيرو(2)

في سنّ العاشرةِ كنتُ مَلك السطوح وكنتُ أحكم سلمياً مملكتي، مملكة من أشياءٍ مُتهدّمة.

كانت السُطوحُ الأماكنَ الهوائيّة المُحاطة بجدران حيث كان الكبارُ يُرسلون الأشياء عديمة الفائدة: كانت توجد هنالك الكراسي العرجاء والمفارش مبقورة الأحشاء، والأصيصات المُتصدّعة، ومواقد الفحم وأشياء أخرى كثيرة كانت تعيش حياة المطهر، في مُنتصف الطريق بين الاستعمال ما بعد الموت والنسيان. بين كلّ هذه الأمتعة كنتُ أتيهُ مُتجبّراً، وأنا أمارس السلطة التي خُرِمتُ منها في الأماكن السفلى. أستطيعُ الآن أن أرسمَ شوارب في بورتريه الجدّ، وأن أنتعلَ الحذاء الأبويّ القديم ذا الرقبة أو ألوّح بالمكنسة التي فقدَت قشّها مُهدّداً مثلما لو كانت رُمحاً. لا شيء كان محظوراً عليّ: كان بإمكاني أن أبنيَ وأن أدمّرَ بنفس الحريّة التي كنتُ أنفخ بها الحياة في الكرات المطاطية المُتفجّرة، كنتُ أرأس تنفيذ أحكام الإعدام في المانيكانات.

مملكتي، في البداية، كانت تقتصرُ على سطح بيتي، لكنّها مضَت شيئاً فشيئاً، بفضل غزواتي الباسلة، تمدّدُ حُدودَها عبر السطوح المُجاورة. من هذه الحملات الطويلة ما لم تكُن تمضي بلا مخاطر، حيث كان من الضروريّ إنقاذ سياج أو القفز على ممرّات سحيقة الهوة، وكنتُ دوماً أعودُ غانماً شيئاً ينضاف إلى كنزي أو بخدش كان يزيدُ من تنامي بُطولتي.

لم يكُن الحضور المُتقطّع لخادمة ما تنشرُ الغسيل أو لعامل ما كان يُصلحُ مدخنة، يُسبّب لي أيّ قلق لأنّني كنتُ قد استوطنتُ بشكلٍ سياديّ على أرض كانوا هُم فيها مُجرّد عابرين أو سكّان مُرتحلين.

ومع ذلك، ففي تخوم مناطق حُكمي، كانت هناك منطقة غير مُستكشفة توقظُ جشعي. وكنتُ قد وصلتُ عدّة مرّات حتى مُحيطها لكنّ سياجاً عالياً من الأخشاب

المُدبّبة الرؤوس كان يمنعُني من مُواصلة التقدّم. وأنا لا يُمكنني أن أستسلم أمام هذا المُعطى الطبيعي لِيَضعَ حَدّاً لخُططي التوسعيّة.

مع بدايات الصيف، قرّرتُ أن أشرعَ في شنّ هجوم على الأرض المجهولة. وأنا أسحبُ من سقف إلى سقف شمعداناً مُتهالكاً ومشجباً قديماً، بلغتُ حافة السياج وبنيتُ برجاً عالياً. وبعد أن اتّخذتُ وضع المواجهة فيه تمكّنتُ أن أمرّرَ رأسي. في البداية لم أميّز سوى سطح رباعيّ الزوايا، ينقسم في مُنتصَفه بعمود إنارة طويل. ولكن عندما كنتُ على وشك أن أقفزَ إلى هذه الأرض الجديدة، لمحتُ رجلاً جالساً على مَدّادَةٍ، كان يبدو أنّ الرجُل نائم. كان رأسه يهوي على كتفه، وعيناه تُظلّلهما قبّعة كبيرة من القشّ، كانتا مُغلقتين. كان وجهه يُندي لحية مُهمَلة، نَمَتْ سهواً تقريباً، مثل لحية الغرقى.

ربّما كنتُ قد أحدثتُ بعضَ الضوضاء فعدّل الرجُل رأسه وبقي مُحدّقاً إلى وجهي في حيرة. والحركة التي قامَ بها بيده فسّرتُها على أنّها إشارةٌ لإخلاءِ المكان، فقمتُ بقفزةٍ وابتعدتُ راكضاً.

وخلال الأيام التالية قضيتُ الوقت على سطحي أحضّرُ دفاعاته، واضعاً كنوزي في مكانٍ آمنٍ، مُحضّراً نفسي لِمَا كنتُ أتصورُ أنه سيكون حرباً دَمويّة. كنت أرى نفسي مُحتلاً من طرف الرجُل الملتحي. منهوباً، ومطروداً إلى العالم الأسفل الرهيب، حيث كان كلُّ شيء طاعة، سُفُطٌ بيضاء، وعمّاتٌ متحرّياتٌ وستائرُ قاسيةٌ. ولكن على السطوح كان يُهيمنُ الهدوء الأكبر، وعبثاً قضيتُ ساعاتٍ متمترساً، أراقبُ الجولة البطيئة للقطط أو، في بعض الأحيان، انهيار طائرة ورقيّة ما.

في ضوء ذلك قرّرتُ أن أقوم بخرجة لأُثبّتَ أيّ نوعٍ من العدو سأكون مُضطرّاً إلى مواجهَته، هل يتعلّق الأمر حقّاً بغاصب أو بهارب ما كان يطلب سوى الحقّ في اللجوء. مُدجّجاً بالأسلحة، قمتُ بمُغامرة خارج حِضني وشيئاً فشيئاً كنتُ أتقدّمُ نحو السياج. وبدلاً من تسلّق البُرج، سِرتُ جنب السياج الخشبي، وأنا أبحث عن ثقب. ما بين مُلتقى عمودين، وضعتُ عيني وشاهدتُ: كان الرجُل لا يزال على المدّادةِ، يتأمّل يديه الشفافتين الطويلتين أو يُلقي بين الحين والآخر نظرةً نحو السماء، لمُتابعة

الغيوم المسافرة.

كنتُ سأقضي الصباح كلّه هناك، مُستسلماً بمُتعةٍ للتجسّس، لكنّ الرجُل، بعد أن أدار رأسه لم يُطِلِ التحديق بثباتٍ في الثقب.

- أدخل، قال وهو يقومُ لي بإشارة من يَده. أعرفُ أنّك هناك. فلنتحدّث.

هذه الدعوة، إن لم تكُن بمثابة استسلام غير مشروط، فقد كانت تكشفُ على الأقلّ الرغبة في التفاوض. وأنا أُؤمّنُ جَيدًا أسلحتي، تسلّقتُ عبر المشجب وقفزتُ إلى الجهة الأخرى للسياج. كان الرجُلُ ينظرُ إليّ مُبتسماً. وهو يسحبُ منديلاً أبيضَ من جيبه، هل كان علامة سلام؟ - مسَحَ جبينَه.

- مُنذ هُنيهة وأنت هناك، قال. لديّ سفعٌ جدُّ مُزهِف. لا شيء يَفلتُ منّي ... هذا الحرُّ!

سألته: - مَن أنتَ؟

- أنا مَلكُ السطوح، أجابني.

- لا يُمكن أن يكون ذلك! - اعترضتُ- ملكُ السطوح هو أنا. كلّ السطوح هي ملكٌ لي. مُنذ بدأت العطلة أقضي كلَّ وقتي فيها. إذا لم آت إلى هنا من قبل فلأنّني كنتُ مُنشغِلاً جِدّاً في مكانٍ آخرَ.

قال: - لا يهمّ. أنت سوف تكون المَلك خلال النهار، وأنا خلال الليل.

أجبت: - لا، أنا أيضاً أريدُ أن أسودَ كملكٍ ليلاً. لديّ مصباح يدويّ. لمّا يكون الجميع نائماً، سأسيرُ فوق السطوح.

قال لي: هذا جيّد، ستسودُ أيضاً خلال الليل! أنا أهديك السطوح، لكن على الأقلّ اسمح لي أن أكون مَلك القطط.

بدا لي اقتراحه مقبولا. فهو يُحوّله ذهنياً إلى نوع من الراعي أو مُروّض لقطعاني المُتوحّشة.

- حسناً، سأترك لك القطط. ودجاج البيت المُجاور، إذا كنتَ تريد ذلك. لكن كلّ ما

تبقى هو لي.

قال لي: - اتفقنا. اقترب الآن. سوف أحكي لك حكاية. فوجهُك وجهُ شخص تُعجبه الحكايات. أليس كذلك؟ إستمع، إذن: «كان هناك في إحدى المرّات رجُلٌ كان يعرف شيئاً ما. ولذلك وضعوه فوق المنبر. ثم بعد ذلك وضعوه في السجن. وبعد ذلك أدخلوه مُستشفى الأمراض العقليّة. ثم فيما بعد احتجزوه في أحَد المستشفيات. ثم وضعوه أمام المذبح. ثم رغبوا أن يُعلّقوه على حبل المشنقة. ومرهقاً أعلن الرجل أنه لا يَعلمُ شيئاً. حينئذ، فقط، تركوه ينعَمُ بالسّلام».

لمّا قال هذا، شرعَ يَضحكُ ضحكاً جدّ عالٍ حتى انتهى مُختنقاً. ولمّا رأى أني كنتُ أنظرُ إليه دون أن أتأثر، عادَ إلى جِدّهِ.

قال: - ألم تُعجبك حكايتي. سأروي لك حكاية أخرى، أخرى أكثر سهولة، «مرّةً كان هناك مُقلّدٌ شهيرٌ في السيرك اسمه ماكس. كانت لديه أجنحة زائفة ومنقارٌ من الكرتون، كان يَخرجُ إلى حلبة السيرك ويَشرعُ في القيام بقفزاتٍ وبالزّقزقة. كان الناس يقولون، النعامة! وهم يُشيرون إليه، وهُم يموتون من الضحك. كان تقليده للنعامة قد جعله شهيراً لدى العالم أجمع. وعلى مدى سنوات كرّرَ دورَه، جاعلاً الأطفال والمُسنّين يستمتعون. لكن مع مرور الزمن، كان ماكس يتحوّل أكثر حزناً، وعندما شارفَ الموتُ دعا أصدقاءَه للوقوف على رأس سريره وقال لهم: «سأكشفُ لكم عن سرٍّ. أنا لم أرغبْ قط في أن أقلّدَ النعامة، أردتُ دائماً أن أقلدَ الكناري».»

هذه المرّة لم يضحك الرجُل لكنّه بقي مُستغرقاً في التفكير، وهو ينظرُ إليّ بعينين مُتفحّصتين.

- مَن أنت؟ عدت لأسأله، ألم تكن قد خدعتني؟ لماذا أنتَ جالسٌ هنا طوال اليوم؟ لماذا لديك لحية؟ ألا تعمل؟ هل أنت كسول؟

- أسئلة كثيرة! أجابني، وهو يُمدّدُ ذراعه إليّ، ويوَجّهُ راحته نحوي: في يوم آخر سأجيبك. الآن إذهب، إذهب من فضلك. لماذا لا تعود غداً؟ أنظر إلى الشمس، إنّها مثل عين ... أتراها؟ مثل عين مُتهيّجة. عين الجحيم.

نظرتُ إلى الأعلى ورأيتُ فقط قرصاً غاضباً أعمى بَصري. مشيتُ مُترنحاً حتى السياج ولمّا كنتُ أجتازه، ميّزتُ الرجُلَ الذي كان ينحني على ركبتيه ويُغطّي وجهَه بقبعته من القشّ.

في اليوم التالي غدثُ.

قال لي الرجُل: «كنتُ في انتظارك». أحسُّ بالسأم، لقد قرأتُ كلَّ كُتبي وليس لديّ أيّ شيء أفعله.

بدَل الدنوّ منه، وقد كان يمدّ يدَ الصداقة، ألقيتُ نظرةً جشعة نحو كومة من الأشياء التي كانت تبدو في الجانب الآخَر من عمود الإنارة. رأيتُ سريراً مُفككاً، وكومة من الزجاجات الفارغة.

قال الرجل: - آه، أعرف. أنت أتيتَ فقط من أجل الأمتعة. يُمكنك أن تأخذ ما تريد، ما هو موجود على السطح. ثم أضاف بمرارة: إنّها لا تصلحُ لشيء.

فأجبته: - أنا لم آتِ من أجل الأمتعة. لديّ ما يكفي، لديّ أكثر من العالم أجمع.

- إذن إستمع إلى ما سأقوله لك: الصيف إلهٌ لا يُحبّني. أنا تُعجبني المُدن الباردة، تلك التي لديها هناك في الأعلى بوابة وتترك لمياهها أن تسقط. لكن في ليما لا تُمطر على الإطلاق أو تسقط قطرات ندى جدّ صغيرة لا تكاد تقتلُ حتى الغبار. لماذا لا نخترع شيئاً يَحمينا من الشمس؟

قلت له: - مظلّة، مظلّة ضخمة تغطي المدينة بأكملها.

هو ذاك، مظلّة لها صارية كبيرة، مثل تلك التي لخيمة السيرك، والتي يُمكن أن ننشرها بحبلٍ من الأرض، مثلما يُرفَعُ العلم. وهكذا سوف نكون جميعاً وإلى الأبد في الظلّ. وسوف لن نعاني.

عندما قال هذا انتبهتُ إلى أنه كان مُبتلاً بكامله، وأنّ الرّشح كان يَجري عبر لحيته ويَبلّل يديه.

وسألني فجأة: - هل تعرف لماذا كانت محفظاتُ الأوراقِ فرِحةً في المكاتب؟ لأنّها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُنِحَتْ زيّاً جديداً بشرائط ونياشين. كانت تظنّ أنها غيّرَتْ مصيرَها في حين أنها فقط غيّرَتْ بدلتها.

سألته: - هل نصنعُها من القماش أو من الورق؟

حدّقَ الرجل في وجهي دون أن يفهمَني.

قال بتعجّب: - آه، المظلّة! سنصنعُها من الجلد، ما رأيك؟ من جلد الإنسان. كلّ واحد سيُعطي أذناً أو إصبعاً. ومن لا يُريد أن يُعطينا إياه، نقتلعه منه عنوة بِكُلَّابٍ.

شرعتُ في الضحك. وحاكاني الرجُل. كنت أضحك من ضحكته وليس ممّا كان قد تخيّله - أن يقتلعَ أذن أستاذتي بالكُلّاب- حينما توقف الرّجلُ عن الضحك، قال: من الجيّد أن نضحك، لكن دون أن ننسى بعضَ الأشياء: على سبيل المثال، أنّه حتى أفواه الأطفال سوف تكون مليئة باليرقاتِ، وأنّ بيتَ المُعلّم سيتمُّ تحويله إلى ملهى من قِبَل تلامذته.

ومُنذ ذلك الحين كنتُ أمضي لزيارة رجُل المَذَّادةِ كلَّ صباح. وقد تخلّيتُ عن تحفُّظِي، بدأتُ أدهشه بكلّ أنواع الأكاذيب والاختلاقات. وكان يستمعُ إليّ بانتباه، لا يُقاطعني إلاّ ليصدّقَ على ما أقول ويُشجّع بحماس كلَّ خيالاتي. لم تعُد المظلّة تشغلُ بالَنا والآن كنّا نتخيّلُ أحذية للمشي فوق البحر، ومزلاجات لتخفيف تعب السلاحف.

ورغم مُحادثاتنا الطويلة، لم أكُن أعرفُ إلاّ القليل أو لا شيء عنه. وفي كلّ مرّة كنتُ أسأله عن شخصه، كان يُقدّم لي رُدوداً لا معقولة أو مُلتبسة:

لقد قلتُ لك ذلك، أنا مَلك القطط. أنتَ لم تصعدْ قطُّ ليلاً؟ لو تأتي في إحدى المرّات سوف ترى كيف ينمو لي ذيلٌ، وكيف تُشحَذُ أظافري، وكيف تُضيءُ عيناي وكيف تأتي كلُّ القطط من كلّ أنحاء المدينة في موكب لتنحني أمامي تبجيلاً.

أو كان يقول:

«أنا ذلك، ببساطة، ذلك، لا أكثر ولا أقلّ، لا تنسَ أبداً هذا: متاع».

في يوم آخر قال لي:

«أنا مثل ذلك الرجُل الذي بُعث، بعد أن قضى عشر سنوات ميتاً، وعاد إلى بيتِه ملفوفاً في كفنه. في البداية خافَ منه أقاربُه وهربوا. ثمّ بعد ذلك تظاهروا بعدم معرفتهم له. ثم بعد ذلك تقبّلوه لكنّهم أظهروا له أنّه ليس لديه مكانٌ على الطاولة ولا سرير لديه للنوم. بعدئذ طردُوه إلى الحديقة، وبعدها إلى الطريق، ثم إلى الجانب الآخَر من المدينة. لكن الرجُل بما أنّه كان يميلُ دائماً إلى العودة، اتفقوا جميعاً وقتلوه».

في مُنتصف الصيف، أصبحت الحرارة لا تُطاق. كانت الشمس تُذوّبُ إسفلتَ الطرقات، حيث يبقى الجراد مُحاصراً. في كلّ مكان، كانت تُتنفّسُ الوحشيةُ والكسلُ. كنتُ أذهبُ في الصباح إلى الشاطئ في الترامات المُزدحمة، وأعودُ إلى البيت مُزمّلاً وجائعاً، وبعد تناوُل الغذاء كنتُ أصعدُ إلى السطح لزيارة رجُل المذادةِ.

كان الرجُل قد ثبّتَ مظلّة بجانب مذادتِه، وكان يُرَوّحُ على نفسِهِ بورقة من الجريدة. كان خذاه قد تقعّرا وبدون ثرثرته السابقة، كان يظلُّ صامتاً وجافياً، يُلقي نظراتٍ غاضبةً نحو السماء.

كان يُكرّر: - الشمس، الشمس! سوف تمرُّ هي أو أمرُّ أنا. لو نستطيعُ أن نسقِطَها بِبُندقيةِ فلين!

في إحدى العشيات استقبلني جدّ قلق. بجانب مذادتِه كانت لديه عُلبة من الورق المُقوّى. بالكاد لمّا رآني، أخرجَ منها كيساً من الفاكهة وزجاجة من الليمونادا.

Telegram:@mbooks90

قال لي: - اليومَ يومُ عيدي المُقدّس. سنحتفلُ به معاً. أنت تعرف ما معنى أن تكون في الثالثة والثلاثين؟ وألاّ تعرف من الأشياء إلا اسمَها، ومن البلدان سوى الخرائط. وأن تبذُل الكلّ من أجل شيء صغير بشكل لانهائي، جدّ صغيرٍ حدّ أن ظُفر أصبعي الخنصر من شأنه أن يكون هو العالم بجانبه. ولكن ألم يقُل كاتبٌ شهيرٌ إنّ أصغر الأشياء هي تلك التي تُعذّبنا، مثل أزرار القميص؟

في ذلك اليوم بقي يتحدّثُ حتى وقتٍ مُتأخرٍ، حتى أشعلت شمسَ الساحرات بلورات المصابيح ونمَتِ الظلالُ الطويلة خلفَ كلّ كوة.

ولما همهمتُ بالانسحاب، قال لي الرجُل:

قريباً ستنتهي العُطلة. حينئذ لن تأتي لرؤيتي. لكن لا يهمّ، حينئذ ستكون قد حلّت بدايات الرّذاذ الأوّل.

وبالفعل، كانت العطلة على مشارف نهايتها. نحن الفتيان، كنّا نعيش بشرهٍ تلك الأيامَ الساخنة الأخيرة، ونحن نشعرُ من بعيد برائحة الحبر، والمُعلّم، والدفاتر الجديدة. كنتُ أمشي مُتضايقاً عبر السطوح، وأنا أفتّش هذه الفضاءات الشاسعة المُكتسحة بلا جدوى، علماً أنّ صيفي، سفينتي الذهبية المُحمّلة بالثروات كانت تمضي نحو الغرق.

وكان رجلُ المدّادة يبدو كما لو أنّه يمضي نحو الفناء. تحت مظلّته، كنتُ أراه نحاسيّ اللون، أخرس، يتأمّل بقلق الهجمة الأخيرة للحرّ الذي كان يجعلُ كعكة السقوف تحترق.

كان يقول وهو يشيرُ إلى السماء - ما زال بعدُ مُستمرّاً! ألا يبدو لك ذلك خبثاً؟ آه، من المُدن الباردة، كثيرةِ الرياح. القيظُ، كلمة قبيحة، كلمة تذكّرُ بالسلاح، بالسكّين.

وفي اليوم التالي سلّمني كتاباً:

سوف تقرؤه عندما لا تستطيعُ الصعود. هكذا ستتذكّرُ صديقَك ... لهذا الصيف الطويل.

كان كتاباً برُسومِ حفرٍ زرقاء، حيث كانت هناك شخصية اسمُها روخيليو. والدتي اكتشفتِ الكتاب على منضدة السرير. قلتُ لها لقد أهداني إياه رجلُ المَدّادَةِ. وهيَ استقصتْ وتحققتْ، وأخذتِ الكتابَ بورقةٍ، ومَضت راكضة لتلقيَ به في القمامة.

- لماذا لم تقُل لي إنّك كنتَ تتحدّثُ إلى هذا الرجُل؟ سوف ترى ما سيحدثُ لمّا يأتي والدك هذه الليلة! لن تذهبَ بعد اليوم إلى السطح.

وأثناء تلك الليلة قال لي والدي:

- هذا الرجُل يحملُ وصمة عار. أنا أمنعُك أن تلتقيَ به مرّة أخرى. لن تصعدَ أبداً إلى

السطح ثانية.

بدأت أمّي تراقبُ الدرج المؤدّي إلى السطح. وكنتُ أنا أمشي خائفاً عبر ممرّات بيتي وعبر غُرف النوم الرهيبة، لقد كنتُ ألقي بنفسي على الكراسي، وأتطلّعُ حدّ الإنهاك إلى ورق جُدران غرفة الطعام، - تفاحة وموزة تتكرّر إلى ما لا نهاية - أو كنت أتصفّحُ ألبوماتٍ مُمتلئة بالأقارب الميتين. لكن أذني كانت مُنتبهة لوقع أصوات السقف، حيث كانت تنتظرُني الأيام الذهبيّة الأخيرة. وصديقي فيها، مُتوحّداً بين الأمتعة.

بَدأت الدروس والأيامُ لا تزالُ بَعدُ حارقة. مشاغلُ المدرسة ألْهَتني. كنتُ أقضي الصباحات اللامُتناهية على طاولة كتابتي، أتعلّم أسماء شخصيات الإنكا الأربعة عشر ورَسم خريطة البيرو بأقلامي الشمعيّة. وكانت العطلة تبدو لي بعيدة، غريبة عنّي، كما لو كنتُ قد قرأتها في تقويم قديم.

وفي أحدِ المساءات، أظلمَت ساحة المدرسة، وكنّسَ نسيمٌ باردٌ الهواءَ الساخن، وفجأة بدأ يتردّدُ صدى رذاذ فوق النخيل. كان المطر الأوّل للخريف. على الفور تذكّرتُ صديقي، رأيتُه، رأيته مُبتهجاً يتلقّى بأيادٍ مفتوحةٍ ذلك الماء المُتساقط من السماء والذي سيغسلُ جلده وقلبه.

عندما وصلتُ إلى البيت كنتُ عازماً على القيام بزيارة له. وأنا أهزأ من مراقبة أمّي، صعدتُ إلى السطح. في تلك الساعة، وتحت أثر ذلك الزمن الرماديّ، كلّ شيء بدا مُختلفاً. تهتزّ ملابس الغسيل المَنسية في الحبال، وتتنفّس في الظليل، ومُنعكسة على المانيكانات كانت تبدو أجساداً مُشوّهة. عبرتُ قلقاً مناطقَ سيادتي ومن خلال الحظارات والمَناور بلغتُ السياج. ومواجهاً للمشجب أطللتُ على الجانب الآخر.

رأيتُ فقط مربّعاً من أرض مُبلّلة. والمِدّادةُ المُفكّكة كانت موضوعة على المرتبة الصدئة لسرير خفيف. مشيتُ لفترة من الوقت عبر ذلك المعقل البارد، في مُحاولة للعثور على وجهة ما، إشارةٍ ما لنَبضه القديم. كانت المِدّادةُ بالقرب من منوَلة من الخزف. وبالمُقابل، عبر عمود الضوء الطويل، كان يصعدُ الضوءُ وجلبة الحياة. ومُطِلاً من زجاج النوافذ رأيتُ داخل بيت صديقي، مَمرّاً من البلاط حيث يَعبُرُ رجالٌ

يلبسون زيّ الحِداد وهم يُفكّرون.

حينئذ أدركتُ أن المطرَ قد أتى جدّ مُتأخرٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مَتجرُ الدُمَى

خوليو غارميندِيا(3)

لستُ أدري متى ولا أين ولا لأجل مَنْ كانتْ قد كُتِبَتِ القصّةُ المعنونةُ بـ: «متجر الدّمَى». ولا أعرف أيضاً ما إذا كانَ هذا مجرّدَ خيالٍ أو حكاية لأشياء ووقائع حقيقيّة، كما يُؤكد ذلك المؤلف المجهول، ولكن باختصار، وبِغضِّ النظر عمّا إذا كانَتِ الحكاية الصغيرة التي تَجْري في متجرٍ صغيرٍ غيرَ حقيقيةٍ أو حقيقيّةً، فإن الصدفة هي التي وضعَتْ هذه الصفحاتِ بين يديّ، وأنا أسارعُ إلى الاستيلاء عليها. وها هي ذي هنا:

لم يكُن لديّ ما يكفي من فلسفةٍ لاستعادةِ الرهانات الفَتعالية للفكر. وهذا يُفسّرُ شُؤُونِي التافهة، ولماذا أحاولُ الآن أن أغلقَ في بضعةِ أسطرٍ حكاية - إذا كان بإمكاننا أن نسقيها كذلك- متجر الدّمَى القديم لجدّي الذي أصبح فيما بعد ملكاً لعرابي، ومن ملكيته انتقل إلى ملكيتي. لهذا المتجر في عَيني سحرُ الذكريات الأسَريّة؛ ومثلما يُحافظ آخرون على بورتريهات أسلافهم، يَكفيني لكي أتذكّرَ أسلافي أنْ أمرّرَ النظرةَ على الرُفوف، حيث تنتظمُ في صفوفِ الدّمَى القديمة التي لم يتيَسر لي قطّ أن ألعبَ بها. مُنذ الطفولة كنتُ معتاداً على النظر إليها بجدّيّة. وقد كان جَدّي، ثم من بَعده عرابي يقولان في إشارة إليها:

- نحن مدينون لها بحياتنا!

ولم يكُن مُمكناً بالنسبة إلي، أنا الذي أحببتُهما بِوُدٍّ على حدٍّ سواء، أن أنظرَ باستخفافٍ لِمَنْ كنتُ مديناً له بالهبة الثمينة للوُجود.

بَعد أن توفي جدّي، لم يَسمح لي عرابي أيضاً أن ألعبَ بالدُمى التي ظلّت على رُفوف المتجر، مُرتّبة في تنظيم صارمٍ، خاضعة لتَراتُبٍ دقيقٍ، ودون أن تستطيعَ أبداً أن تتعاشرَ للحظةٍ مع نماذجَ من أشكالٍ مُختلفةٍ. تلك التي من العوام، التي تمشي ولها زنبرك يدفعها ما يكفي لتمشي لمسافةِ مترٍ ونصف في مساحة منبسطة، مع الدّمى الفاخرة والأرستقراطية ذاتِ القبّعَة والمعطف، التي بالكاد تعرفُ رَفعَ أطراف الأقدام

المُتعلة لأحذية في أناقة. لم يكُن عرابي يمنح العناية لا لهذه ولا لتلك، أكثر ممّا هو لازمٌ وضروريٌ للحفاظ على نظافة الرُّفوفِ التي كانت تصطفُ فوقها. لم يتّخذ أيّ ألفة تجاهَها ولم يكُن يسمحُ لنفسه بأدنى مَزحة معها. كان قد أرسَى في المتجر الصغير نظاماً يجبُ أن يدخلَ مرحلة تدهور لمّا أتولّى أنا حيازة المؤسسة، لأنّ روحي لن يكون لها نفس المزاج الذي كان لديه، وسيبدو ذلك جليّاً من الأفكار والاتجاهات المُتحرّرة التي ستزدهرُ في أجواء الأيام الجديدة.

قبل كلِّ شيء، كان يفرضُ على الدّمى مبدأ السلطة والاحترام الخرافيّ للنّظام والعادات السارية في المتجر مُنذ القديم. فقد كان يرى أنّه من المُستحسن أن يبثّ فيها بعضاً من الرهبة ويُعاملها بشيء من القسوة لأجل تجنّب البلبلة والاضطراب والفوضى التي تحملُ الخرابَ إلى المتاجر الصغيرة المُتواضعة مثلما في الإمبراطوريات العُظمى. لقد كان مُتشبّعاً بتلك المبادئ الخاطئة التي كان قد تربّى عليها والتي سعى إلى غرسها فيّ بكل الوسائل. وإذ وَجد فيّ وريثه الشرعيّ في تدبير شؤون المتجر، بدأ يُعلّمني إجراءاتِ التقشّفِ لرجلٍ يُعنَى بتدبير الأعمال. أمّا بالنسبة إلى هيريبيرتو، الخادم الذي كان ومنذ زمن طويل مُتكفّلاً بالمُساعدة في خدمة شؤون أعمال المتجر، فكان عرابي يُساويه بأسوإ الدُّمى تلك التي تُشحَن بتدوير الحبل، ويُعامله مثل البهلوانات الخشبيّة والمهرّجين الذين يتمّ ملؤهم بنشارة الخشب، والتي كانت تعرفُ رواجاً كبيراً في ذلك الحين. لقد كان هيريبيرتو، حسب رأيه، لا يَمتلك عقلاً أذكى من الدّمى التي من فرْط عمله الدائم في تجارتها انتهى إلى اكتساب عاداتها الطائشة والمُخنّثة، إلى الحدّ الذي زادَت معه شكُوكه بهذا الخصوص إلى درجة أنه كان يرتاب من تلك الدّمى التي غادرَت المتجر في وقت ما برفقة هيريبيرتو دون أن تُباع نهائيّاً. ولهذا كان يفصلُ هؤلاء التعساء عن بقية الدّمى، مُتشكّكاً ربّما من أنها اكتسبت عاداتٍ ضارّةً على يدِ هيريبيرتو.

وهكذا انصرمَت سنوات طويلة، حتى صرتُ رجلاً ناضجاً، وصار عرابي عجوزاً مُتطابق الصفات مع جدّي كما عرفْته أثناء طفولتي. كنّا نسكن في المحلّ الخلفيّ للمتجر، حيث كنّا لا نستطيع أن نتحرّك إلا بصعوبة بالغة بين الدمى. هناك ولدتُ، لذلك، على الرغم من أني ابنٌ شرعي لأبوين كريمين، يُمكن أن أعتبر نفسي ثمرةً

لحكاية حبّ حدثت في الجهة الخلفيّة للمتجر، مثلما يحدثُ عادة مع أبطال الحكايات الشطارية.

وفي يوم ما شعرَ عرابي بأنّ حالته الصحّيّة جدّ سيئة.

- لقد غامَتْ عيناي، قال لي، وصرْتُ أخلط بين المُخامينَ والكُرّاتِ المُطّاطِيَّة، التي توجدُ في الواقع في موضعٍ أعلى من ذلك بكثيرٍ.

واصلَ وهو يُمسك يدِي بِوُدٍّ:

- أجِسُّ ساقيّ واهنتين، ولا أستطيعُ أن أقطعَ المسافة القصيرة التي تفصلُ بينك وبين قُطّاعِ الطرق دونما تعبٍ. ومن خلال هذه العلامات أعرفُ أنني سأموت، وأنا لا أعِدُ نفسي بساعاتٍ طويلةٍ من الحياة، ومُنذ الآن أنتَ ترثُ متجر الدّمى.

انتقل عَرّابي إلى إعطائي مجموعة من التوصيات المُكثّفة عن الأعمال. ثم قام بتوقّف رأيْته أثناءَهُ يتجَوّلُ عبر المتجر والجهة الخلفيّة منه وعيناه على وشك الانطفاء، تطوي بالتأكيد مشاهدَ واسعة من الحاضر والماضي، داخل الجدران الضيقة المُغطاة بكائنات صغيرة تقومُ بحركاتها المعتادة، وكانت تبدو في أوضاعها المألوفة. وفجأة، وهو يُركّز نظرته على الجنود الذين احتلّوا جهة كاملة على الرفوف، فكّر:

- نحن مدينون لهؤلاء المُقاتلين بساعات طويلة من السلام. لقد منَحونا فوائدَ جيّدة. بَيعُ الجيوش تجارةٌ مُربِحَة.

وأنا بالقرب منه، كنتُ أصِرُّ على أن يُوافقَ على استدعاء الأطبّاء ليفحصوه، لكنه اكتفى فقط بأن يُظهِرَ لي عُلبةً كبيرةً كانت في زاويةٍ ما.

- إنها تشتملُ بالتحديد على كثير من العلماء والأساتذة والدكاترة ونوابغ آخرين من الكرتون وأعماقها من نشارة الخشب، بقيَتْ هناك دون أن تُباعَ في العتمة التي تُناسبها. وإذن، لا تُعلّق آمالاً كبرى على فائدة مثل هذا السّطر. وبدلاً من ذلك فإن دُمى الخزف كان مرغوباً فيها، ويتمّ اقترانُها دَوماً بالرّبح. وأيضاً الدّمى المصنوعة من العجائن والشليولويد التي كانت عادة مطلوبة، وحتى تلك المصنوعة من الخِرَقِ كانت تجد سبيلها إلى البيع. وبين الحيوانات -لا تنسَ ذلك-، أوصيك على الأخض

بالحمير والذبية التي كانت الدعامة الأساسية لبيتنا في كلّ الأوقات.

بعد هذه الكلمات شعرَ عرابي بأنّ حاله يزدادُ سوءاً، وجعلني أستقدمُ على عجَلٍ كاهناً وراهبتين. مددتُ ذراعيّ وأخذتها من الرفّ المُجاور للفراش.

- لقد مضى زمنٌ طويل، قال وهو يَجُسُّها بلطف، مضى زمنٌ طويل وأنا أحتفظ هنا بهذه الدمى التي يصعبُ بَيعها. يُمكنك أن تقدّمَها بخصم عشرة في المئة، أي بما يُعادل العُشْر فيما يتعلّق بالكهنة. أما بالنسبة للراهبات، فتكفّلْ أنتَ بأعبائها وقدّمْ لهنّ واحدة.

في هذه اللحظة قطعَ كلامَ عرّابي بكاءُ هيريبيرتو الذي كان في زاوية من الغرفة الخلفيّة للمتجر مُمسكاً برأسه بين يديه، وهو لا يستطيعُ أن يستمعَ من دون ألمٍ الكلماتِ الأخيرة لصاحب متجر الدّمى.

- هيريبيرتو، قال وهو يتوجّهُ إلى هذا الأخير: ليسَ لديّ ما أكرّره ممّا سبقَ لي أن قلته لك مرّاتٍ عديدةً من قبل: لا ترفع بشكلٍ بَذيّ صوتك ولا تلمس الدّمى.

ولم يُجب هيريبيرتو بشيء، لكنّ تنهّداته تردّدت من جديد بشكلٍ أعلى من أيّ وقتٍ مضى ومُقشعِرّةً بشكلٍ أكبر.

ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المُعاكَسة عجّلت بنهاية عرّابي الذي لفظ أنفاسَه الأخيرة لحظات قليلة بعد أن نطقَ بتلك الكلمات. أغلقتُ بوَرَعٍ عينيه ومسحتُ في صمتٍ دمعة. وكان يُعذّبني، مع ذلك، أن يُظهِرَ هيريبيرتو أكثر مِنّي، علاماتٍ أكبرَ من الحزن والألم. كان ينتحبُ مُختنقاً بالدموع، كان يَنتِشُ شَعرَهُ ويركض كئيباً من الطرف الأقصى للغرفة الخلفيّة إلى طرَفها الآخر. وأخيراً ضمّني بين ذراعيه:

- نحن وحيدان! نحن وحيدان! صاح.

تخلّصتُ منه دونما عُنف، ثم أشرتُ له على الكاهن والطبيب القبيح والمُمرّضات البيضاوات وباقي الدّمى المُتناثرة في فوضى جنب السرير، وقمتُ له بإشاراتٍ بأنْ يَضعَها مرّة أخرى في أماكنها ...

الدخيلة

خورخي لويس بورخيس

يقولون (وهذا أمرٌ مُستبعَد) إنّ القصة تمّ حكيُها من قِبل إدواردو، أصغر آل نيلسون، أثناء السهر على موت كريستيان أكبرهم، الذي مات ميتة طبيعيّة، نحو تسعين وثمان مائة وألف وبضعة أعوام في دائرة مورون. والحقيقة أنّ شخصاً سمعَها من شخص آخر أثناء تعاقب تلك الليلة الضائعة الطويلة، ما بين شراب الماتي، وقد كرّرها على مسامع سانتياغو دابوفي الذي من خلاله عرفْتُها. سنوات بعد ذلك عادوا ليَحكوها لي في توردیرا، هنالك حيث كانت قد حدثت. الصيغة الثانية التي كانت شيئاً ما أكثر إسهاباً، تؤكّد إجمالاً حكاية سانتياغو، مع وُجود تنويعات واختلافات صغيرة هي من صميم القضية. وأنا أكتبُها الآن لأنّ فيها يتمُّ تشفير، إنْ لم أكن مُخطئاً، بلّور موجز ومأساويّ من طبع سكّان الضواحي القدامى. سأنجزُ ذلك بأمانة، لكنّني أتوقّع أنْ أستسلمَ للغَواية الأدبيّة في إبراز بعض التفاصيل أو إضافتها.

في توردیرا كانوا يُسمّونهم آل نيلسن. وقد قال لي القسّ إن سَلفه كان يذكر، وليس دون استغراب، أنه شاهدَ في بيت أولئك الناس كتاباً مقدّساً أسود بالياً ذا غلاف أسود مكتوب بحُروف قوطيّة، لمحَ في صفحاته الأخيرة أسماءَ وتواريخَ مكتوبة بخطّ اليد. وكان الكتاب الوحيد الموجود في البيت. سوف يضيعُ كتابُ أخبار آل نيلسن المشؤوم، مثلما سوف يضيعُ كلّ شيء. البيت الكبير، الذي لم يعُد مَوجوداً، كان من الطوب دونما تجصيص. من الدهليز كان يُقسّمُ الفِناءَ زليجٌ مُلوّنٌ وآخر ترابيّ. وبخصوص الأشياء الأخرى، قليلون هُم أولئك الذين دخلوا هناك. فقد كان آل نيلسن يُدافعون عن عُزلتهم. في الغُرف المُهدّمة كانوا ينامون على أسِرّةٍ نقّالةٍ. وكانوا يَجدون تزَفهم في الفَرس، وطقمه، والخنجر ذي النصل القصير، والزيّ المُتباهي لأيام السبت والكحول المُعربد. أعلمُ أنّهم كانوا فارعي القامة، ذوي شعَر أحمر. من الدنمارك أو إيرلندا، اللتين لم يكونوا أبداً يسمعون أيّ حديث عنهما، كانوا ينتمون من حيث نسبُ دَمهم لهذين الكريوليين. كان الحيّ يَهابهم في الكولورادو. إذ ليس من المُستحيل أن يكونوا قد تسببوا في إحدى حالات الموت. جنباً إلى جنب قاتلوا مرّةً

الشرطة. ويُقال إن الأصفر كان لديه شجارٌ مع خوان إيبيرا، لم يُعانِ فيه الأمرّين، وهو، بحسب فهم العارفين بمثل هذه الأمور، يعني الكثير. كانوا رُعاة بقر، وقضابين لصوص ماشية، وأحياناً مُقامرين ماهرين. كانت تُميّزهم شمعتهم كبخلاء عدا لمّا يُلينهم الشراب والقمارُ فيصيرون أسخياء. أمّا عن أقاربهم فلا أحد يَعرفُ شيئاً ولا من أين أتوا. كانوا يَملكون عربة وزوج ثيران.

حقيقةً، اختلفوا حول التواطؤ على الشرّ الذي مَنحَ شُهرته لقطاع الطرق في كوستا برافا. هذا، وما نجهله، يُساعد على فهم مدى اتّحادهم. فالخصام مع أحدهما كان يعني أن تكسبَ عداء اثنين.

وكان آل نيلسن عربيدون، لكن حلقاتهم الغراميّة كانت حتى ذلك الحين تجري في الدهاليز أو في البيوت السيّئة. لذا لمْ تنتفِ التعليقات حينما أخذ كريستيان خوليانا بورغوس لتعيش معه. صحيح أنه بذلك كان قد ربحَ خادمة، لكن ليس أقلّ وثوقاً من هذا الأمر أيضاً أنه أغرقها بحلي رخيصة مروعة، وكانت هي تلبسها في الحفلات. في الحفلات الفقيرة للدير حيث مُنِعَ في رقصة التانغو التوقفات وتغيير إيقاع الحركة وحيث كان الرقص لا يزالُ بَعدُ يتمّ بشكل جدّ مُشرق. وكانت خوليانا ذات بَشرة سمراء وعينين لوزيتين. كان يكفي أن ينظر شخصٌ ما إلى وَجهها، لتبتسم. ولم تكن تبدو سيّئة في حيٍ مُتواضع، حيث العمل والإهمال يستنفدان النساء.

كان إدواردو يُرافقهما في البداية. ثم قام بعد ذلك برحلة إلى أريثيفس من أجل أعمال لا يدري أحدٌ ما تكون. بَعد عودته أتى إلى البيت بفتاة، كان قد التقى بها في الطريق، وبَعد بضعة أيام طردَها. أصبحَ أكثر تجهُّماً. وكان يسكر فقط في المخزن، ولم يكن يلتقي مع أيّ شخص. كان يُحبّ زوجة كريستيان. بعض سكان الحي، الذي ربّما عرفوا ذلك قبله، توقعوا بفرح خبيث التنافس الخفيّ بين الأخوين.

في إحدى الليالي، عند عودته مُتأخراً من الناصية، رأى إدواردو ظِلّ كريستيان مربوطاً إلى سياج الفِناء، كان الأكبر ينتظره بأفضل لباس. وكانت المرأة تمضي وتأتي حاملة شرابَ الماتي في يَدها. قال كريستيان لإدواردو:

«أنا ذاهبٌ إلى حفلة لَهو في فارياس. هناك توجدُ خوليانا. إذا كنتَ راغباً فيها،

استعملها».

كانت لهجته تتأرجح بين المتسلط والودود. وظلّ إدواردو فترةً من الوقت ينظرُ إليه. لم يكن يعرف ما يجبُ عليه القيام به. نهضَ كريستيان وودّعَ إدواردو لا خوليانا، فقد كانت مُجرّد شيء، ركبَ جوادَه ومضى يخبّ دون عناء.

مُنذ تلك الليلة اقتسماها. لا أحد يعرفُ تفاصيلَ هذا الاتحاد الفاحش، الذي كان يَحتقرُ حشمة الضاحية. كان التفاهم يسيرُ بشكل جيّد خلال بضعة أسابيع، لكنه لم يكُن مُمكناً أن يَستمر، لم يكُن الأخوان يتلفّظان بينهُما باسم خوليانا حتى لأجل مُناداتها، لكنّهما كانا يبحثان ويجدان أسباباً لعدم الاتفاق. كانا يتجادلان في بَيع بعض الجلود، لكن ما كانا يتجادلان فيه كان شيئاً آخر. كان كريستيان قد اعتاد أن يرفع صوته أثناء الحديث وكان إدواردو يصمت. دون أن يَدريا، كانا يشعُران بالغيرة. وفي الربض القاسي، لم يكُن ثمّة رجُلٌ يُصرّح بأنّ امرأةً يُمكن أن تهمّه أبعد من الرغبة والتملّك، لكن الاثنين كانا عاشقين. وهذا، بطريقة ما، كان يُهينُهما.

وفي أحد المساءات في ساحة لوماس، التقى إدواردو خوان إيبيرّا، الذي هنّأه على هذا الاتقان الذي كان قد دبّر به أمرَه. حينئذ كان قد شتمه إدواردو، إذ لا أحد أمامه كان، كما أعتقد، سيسخرُ من كريستيان.

كانت المرأة تخدمُ الاثنين بخُضوع حيواني. لكنها لا يُمكنُ أن تُخفي تفضيلاً ما للأصغر، الذي لم يَرفض المُشاركة، لكنّه لم يُدبّر ذلك.

وفي يوم ما، أرسلا خوليانا لتُخرج كرسيّين إلى الفِناء الأول، وألاّ تُظهرَ هناك، لأنهما كان يجب أن يتحدّثا. هي كانت تنتظرُ أن يكون حواراً طويلاً فاستلقت لتنام القيلولة، لكنّهما في الحين تذكّراها. جعلاها تملأ كيساً بكلّ ما كان لديها من أمتعة، دون أن ينسيا السبحة الزجاجيّة الورديّة والصليب الصغير الذي تركته لها والدتُها. دون أن يُوضّحا لها أيّ شيء، أركباها العربة، وبدؤوا رحلة صامتة ومُملّة. كانت الأمطار قد هطلت، والطرق قد صارت مُثقلة جدّاً بالأوحال، كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة لمّا وصلوا إلى مورون. وهناك باعاها لراعيةِ الماخور. كان الاتفاق قد تمّ. قبضَ كريستيان المبلغ واقتسمه فيما بعد مع الآخر.

في تورديرا، كان آل نيلسن، تائهين حتى حينئذ في صباح ذلك الحبّ الفظيع (الذي كان هو أيضاً روتيناً)، أرادا أن يستأنفا حياتهما القديمة، حياة رجال بين الرجال. فعادا إلى المقامرات، وميدان مُصارعة الديكة والعربدات اللاهية الطارئة. أحياناً ربّما اعتقدا أنهما ناجيان، لكنهما كانا قد اعتادا على الوقوع، كلٌ من جهته، في غيابات غير مُبرّرة أو مُبرّرة أكثر من اللزوم. قبل نهاية السنة بفترة قصيرة، قال الأصغر بأنّ له غرضاً ينبغي أن يقضيه في العاصمة. وذهب كريستيان إلى مورون، هذا الأخير اعترف بذلك لفرس إدواردو في سياج البيت. دخل. وفي الداخل كان الآخر، ينتظر دوره. ويبدو أن كريستيان قال:

إذا استمرّت الأمور على هذه الحال، ستُتعب النساء الحقيرات. الأفضل أن تكون في مُتناول يدنا. تحدّث مع راعية الماخور، أخرج بضع قطع نقديّة من حزامه وأخذاها بعيداً. كانت خوليانا تمضي مع كريستيان. وحزّض إدواردو الفرس لكي لا يراهما.

عادا إلى ما سبق أن ذُكِرَ من أفعالهما . كان الحلّ الشائن قد فشل، استسلم الاثنان لغواية ممارسة الخداع. فقد كان قابيل يمضي هنالك، لكن المودّة التي كانت تربط بين آل نيلسن - من يدري أي مشاقٍّ وأيّ مخاطرَ كانا قد اقتسماها - لقد اختارا التنفيس عن حنقهما مع آخرين. مع شخصٍ مجهولٍ، مع الكلابِ، مع خوليانا، التي كانت قد جلبت لهما الشقاق.

كان شهر آذار قد شارفَ على الانتهاء ولم يكُن الحرُّ يتراجع. وفي أحد الآحاد (اعتادَ الناس يوم الأحد أن يعودوا إلى بيوتهم في وقت مُبكر) رأى إدواردو، الذي كان عائداً من المتجر، أنّ كريستيان يشدُّ نيرَ الثورين. قال له كريستيان:

- تعال، علينا أن نترك بعض الجلود في باردو. لقد حملتها. نستغلّ الجو البارد.

كانت تجارة الباردو، كما أعتقد، قد بقيت إلى الجنوب. مَضيا عبر طريق الجيوش. ثم بعدها عبر انحراف. وكان الحقلُ يمتدّ مجاله أكبر مع الليل.

انتهيا في منبت للحلفاء؛ ألقى كريستيان السيجار الذي كان قد أشعله وقال بلا

CamScanner الممسوحة ضوئيا ب

حرج:

- إلى العمل، يا أخي. فيما بَعد سوف يُساعدنا هنود قبيلة الكاراكارا. اليوم قتلتها، فلتبق هنا مع ثيابها، لن تقترف مزيداً من الأذى.

تعانقا وهُما يكادان يَنتحبان. الآن صارَت تربط بينهما حلقة أخرى: المرأة التي تمَّت، للأسف التضحية بها، وواجب نسيانها.

الخنجر

في الدرج هنالك خنجر. لقد تمّ طرقه في طليطلة، أواخر القرن الماضي، وقدّمه لويس ميليان لافينور إلى والدي، الذي أتى به من الأوروغواي، وقد حمله إيفاريستو كاربيغو مرّةً في يده.

أولئك الذين يَرَونه ينبغي لهُم أن يلعَبوا به للحظة. ويتمّ التحذير بأنّه، مُنذ زمن بعيد، والبحث جارٍ عنه. تتعجّل اليدُ في الضغط على القبضة التي تنتظرُها. والنصل المُذعن والقويّ يتلاعبُ بدقة في الغمد.

شيءٌ آخرُ يريدُه الخنجر. هو ليس مُجرّد هيكل مصنوع من المعادن. الرجال فكّروا فيه وشكّلوه لغاية محدّدة بدقّة. هي، بشكل ما أبديّة. الخنجر الذي قتلَ في تلك الليلة السالفة رجُلاً في تاكوارمبو والخناجر التي قتلَت قيصر. تريدُ أن تقتل، تريد أن تسفك الدماء بشكل مُفاجئ.

في أحد أدراج المكتب، ما بين المُسوّدات والرسائل، يَحلمُ الخنجر، بشكل غير مُنقطع. حُلمه البسيط حُلمُ نمر، وتنتعش اليد عندما تتحكّم، لأنّ المعدن، يتشجّعُ، المعدن الذي يستشعرُ في كلّ مُلامسةِ القاتلَ الذي خلقَهُ مِنْ أجلِهِ الناس.

أحياناً أشعرُ بالأسف. كلُّ هذه الصلابة، كلّ هذا الوُثوق الهادئ جدّاً أو الكبرياء البريء، وتَمُرُّ الأعوامُ، سُدى.

التحدي

ماريو بارغاس يوسا

ليونيداس. فوراً لاحظنا على وجهه أنّ شيئاً ما كان يحدث.

- ماذا يحدث هناك؟ سأل ليون.

سحبَ ليونيداس كرسيّاً وجلسَ معَنا.

- أنا أموت من العطش.

سكبتُ له كأساً مليئة حتى حافتها وفاضت الرّغوة على الطاولة. تنفّس ليونيداس ببُطء وبقي مُحدّقاً وهو مُستغرقٌ في كيفية انفجار الفقاعات. بعدئذ عبَّ الكأسَ دفعة واحدة حتى آخر قطرة.

- خوليو، سيخوضُ معركته هذه الليلة، قال بصوت نادر.

بقينا صامتين للحظة. شربَ ليون كأسَه، وأشعلَ بريسينيو سيجارة.

- لقد كلّفني بأن أخبركم، أضافَ ليونيداس، إنه يُريد منّا أن نذهب.

وأخيراً، سأل بريسينيو:

- كيف كان ذلك؟

- التقيا هذا المساء في كاطاكاوس. مسحَ ليونيداس جَبينه بيَده وصفعَ الهواء: بضع قطرات من العرق انزلقت من بين أصابعه على الأرض. أنتم تتصَورون الباقي ...

- حسناً، قال ليون. إذا كان يجبُ عليهما الاقتتال، فمن الأفضل أن يتِمّ هكذا، بجَميع القوانين. لا يجب أن نقلق. فخوستو يَعي جيّداً ما يفعله.

- نعم، كرّر ليونيداس، في حال مجنون. ربّما يكون أفضلَ بهذه الطريقة.

كانت الزجاجات قد بقيت فارغة. وكان النسيمُ يهبّ وكُنّا قد توقّفنا، قبل لحظات، عن الاستماع إلى الفرقة الموسيقيّة لثكنة غراو التي كانت تُقدّم عرضاً في الساحة.

كان الجسر مليئاً بالأشخاص العائدين من الحفلة الموسيقيّة للجوقة العسكريّة. والأزواج العاشقون، الذين كانوا قد التمسوا ظليل الرصيف البحريّ، قد بدؤوا أيضاً يُغادرون مخابئهم. وعبر باب «ريو بار»، كان يمرّ كثيرٌ من الناس. بعضهم كانوا يدخلون. وفجأة، صارَت الترسينة مليئة بالرجال والنساء الذين يتحدّثون بصوت عال ويضحكون.

قال ليون: - إنها التاسعة تقريباً. من الأفضل أن نذهب.

خرجنا.

- حسنا، يا شباب - قال ليونيداس. - شكراً على البيرة.

- سيكون ذلك في «البزكة»، أليس كذلك؟ سأل بريسينيو.

- نعم. على الساعة الحادية عشرة. خوستو سينتظرُكم في العاشرة والنصف، هُنا بالتحديد.

قام الشيخ بتلويحة وداع وابتعدَ سائراً عبر شارع قشتالة. كان يعيشُ في الضواحي، عند بداية المرملة، في مزرعة مُنعزلة، يبدو كما لو أنّها تحرش المدينة وترعاها. مشينا باتجاه الساحة. كانت مهجورة تقريباً. بجوار فندق السُيّاح، كان ثمّة شبابٌ يتناقشون بصوت عال. لمّا عبرنا بجانبهم، اكتشفنا أنّ وسطهم فتاة كانت تستمعُ وهي تبتسم. كانت جميلة وكان يبدو أنّها تتسلّى.

- سوف يقتلُهُ الأعرج بغتة، قال بريسينيو.

- إخرس، ردّ ليون.

افترقنا في زاوية الكنيسة. ومشيتُ بسرعة حتى بيتي. لم يكن هناك أحد. لبستُ بذلة الورشة وكنزتين وأخفيت الفدية في الجيب الخلفي للسروال، ملفوفة في منديل. عندما كنتُ خارجاً، التقيتُ بزوجتي قادمة.

قالت: عائد ثانية إلى الشارع؟

- نعم. يجبُ عليّ أن أحلّ مشكلة.

كان الصبي نائماً بين ذراعيها، وكان لديّ الانطباع بأنه قد مات.

والخت: يجب أن تصحوَ باكراً، هل نسيتَ أنك تعمل أيام الآحاد؟

قلت: لا تقلقي. سأعودُ خلال دقائق.

مشيتُ عائداً إلى «ريو بار» وجلستُ على منضدة الحانة. طلبتُ بيرة وسندويتش، لم أكمله، لقد فقدتُ شهية الأكل. لمسَ شخصٌ ما كتفي. كان موسى، مالك المحلّ.

- هل صحيح أمرُ المُشاجرة؟

- نعم. سيكون ذلك في «البزكة». الأفضل أن تلوذ بالصمت.

- لستَ بحاجة إلى أن تحذّرني، قال لي. عرفتُ ذلك مُنذ لحظة. آسف لخوستو، لكنه في الواقع كان يبحث عن هذا مُنذ وقت طويل. والأعرج لا يملك كثيراً من الصبر، نحن نعلم هذا.

- الأعرج رَجُلٌ وسِخٌ.

- كان صديقك من قبل ... شرع موسى في القول، لكنّه توقفَ عن الكلام.

نادى أحدَهم من الترسينة وابتعد، لكنّه بعد بضع دقائق عاد مُجدداً إلى جانبي.

- هل تُريدني أن أذهب؟، سأل.

- لا. معنا ما يكفي، شكراً.

- حسناً. نبّهني إذا كان يُمكنني أن أقدّم أيّ مُساعدة. فخوستو صديقي. تناولَ رشفة من قدح بيرتي، دون أن يطلب إذناً مني. الليلة الماضية كان الأعرج هنا مع جماعته. ولم يكن يتحدّث إلا عن خوستو وكان يُقسم الأيمان أنه سيُمزّقه إرباً. كنت أصلّي، لأنه لن يخطر على بالكم أن تقوموا أنتم بجولة هنا.

قلت له: كنتُ أودّ أن أرى الأعرج حين يكون غاضباً، فوجهه مُضحك جداً.

ضحك موسى.

- الليلة الماضية كان يبدو مثل الشيطان. وهذا الرجل قبيح الخلقة جداً. لا يمكن للمرء أن ينظرَ إليه طويلا دون أن يَشعر بالغثيان.

انتهيتُ من شرب بيرتي وخرجتُ للنزهة على طول الرصيف، ولكنّي عُدتُ سريعاً. من باب «ريو بار» رأيتُ خوستو، وحيداً، جالساً على الترسينة. ينتعلُ حذاءً رياضيّاً من المطاط ويرتدي تي شيرت غدا لونُهُ باهتاً يرتفع عبر الرقبة وحتى الأذنين. يبدو جانبيّاً مع انعكاس الظلمة الخارجيّة كأنه طفل، امرأة: مِن هذا الجانب، كانت ملامحُه واهنة وعذبة. عند سماعه لخطواتي التفتَ كاشفاً لعيني الوَصمة الأرجوانية التي تجرحُ النصف الآخر من وَجهه، من شدقه حتى الجبين. (كان البعضُ يقول إنّ ذلك كان ضربة، تلقّاها لمّا كان صبياً، في مُشاجرة، لكن ليونيداس كان يؤكّد أنّه وُلد في يوم الفيضان، وأنّ هذه الوصمة كانت خوف الأمّ لمّا رأت أنّ المياه تتقدّم حتى باب بيتها نفسه).

قال: لقد وصلت للتو، ماذا عن الآخرين؟

- سيأتون حالاً. يجب أن يكونوا في الطريق.

نظر إلى خوستو وجهاً لوجه، بدا كما لو أنه سيبتسم، لكنّه اتخذ هيأةً جدّ صارمة والتفت برأسه.

- كيف جرى أمرُ حادث هذا المساء؟

رفعَ كتفيه وقام بإشارَة غامضة.

- التقينا في «إيل كارو هونديدو». كنتُ قد دخلتُ لأشرب كأساً فاصطدمتُ وجهاً لوَجه مع الأعرج وجماعته. هل تتصَور الأمر؟ لو لم يكُن الكاهن مارّاً من هناك لذبحوني. قفزُوا عليّ مثل الكلاب. مثل كلابٍ مسعورة. لكنّ الكاهن فصلَ بيننا.

- هل أنت رجُلٌ حقّاً؟ صرخَ الأعرج.

- أكثر منك، صرخَ خوستو.

- توقّفا، قال الكاهن.

- إذن نلتقي في «البزكة» هذه الليلة؟ صرخ الأعرج.

- حسناً، قال خوستو. كان هذا كلّ شيء.

الناس الذين كانوا في «ريو بار» كان عددهم قد قلّ. بقي بضعة أشخاص في منضدة البار، لكن في الترسينة كنّا قد بقينا نحن فقط.

قلت له: لقد أحضرتُ هذا، وأنا أناولهُ المنديل.

فتح خوستو المُدية وقاسَها. كان لنَصلها مقاش يَده بالضبط، من المعصم حتى الأظافر. ثم أخرج مُدية أخرى من جيبه وقارن.

وقال: هُما متساويتان. سوف أحتفظ بمُديتي، لا أكثر.

طلب بيرة وشربناها دونما كلام، ونحن ندخّن.

قال خوستو: ليس لديّ ساعة، ولكن يجب أن تكون الساعة الآن أكثر من العاشرة. سوف نصلُ إليهم.

فوق الجسر التقينا بريسينيو وليون. تبادَلا التحية مع خوستو، تصافحا معه يداً بيد.

قال ليون: يا أخي أنت سوف تُمزّقه إرباً.

وقال بريسينيو: ذاك الحديث لن نُعيده ثانية، الأعرج لا يستطيع أن يفعل معك شيئاً على الإطلاق.

الاثنان كانا يلبسان نفس الملابس التي كانا يرتديانها من قبل، ويبدو أنهما اتّفقا على إظهار الأمان أمام خوستو وحتى جوانبَ من الفرح.

قال ليون: دَعنا ننحدر من هنا. فالطريق أقصر.

- لا، قال خوستو. فلنقُم بلفّة. أنا لا أريد أن أكسرَ إحدى ساقي الآن.

كان هذا الخوف غريباً، لأنّنا تعوّدنا دوماً على النزول إلى مجرى النهر ونحن نتدلّى

عبر التشابك الحديديّ الذي يُمسك الجسر. تقدّمنا ربع ميل عبر الشارع، ثم انعطفنا جهة اليمين ومشينا فترة طويلة في صمت. عند انحدارنا عبر الطريق الصغيرة نحو مجرى النهر، تعثّرَ بريسينيو وأصدرَ لعنته. كانت الرمال دافئة وأقدامنا تغرق، كما لو كنّا نمشي في بحر من القطن. نظر ليون بتدقيق إلى السماء.

- هناك غيوم كثيرة، والقمر لن يكون مُجدياً كثيراً هذه الليلة.

- سنُشعل النيران، قال خوستو.

- هل أنت مجنون؟ أتريدُ أن يأتي البوليس؟

- يُمكن إصلاح الأمر، قال بريسينيو بلا اقتناع، يُمكن تأجيل المسألة حتى يوم غدٍ. لن يتقاتلا في العتمة.

لم يُجِبْ أحدٌ ولم يَعُدْ بريسينيو إلى الإلحاح.

- ها هي البِرْكة، قال ليون.

في لحظة، لم يَعرف أحدٌ متى وقع في قاع النهر جذعُ شجرةِ خرّوب جدّ ضخمة يُغطّي ثلاثة أرباع عرض المَجرى. كان ثقيلاً جداً، ولمّا كان ينزل، لم تكن المياهُ تتمكّن من رَفعه، بل كانت تسحبُه فقط بضعة أمتار، بحيث أنّ البركة كانت كلّ عام تبتعدُ أكثر عن المدينة. لا أحد يعلم من سمّاها «البِرْكة»، لكن هكذا كان يُشير إليها الجميع.

- هم يوجدون هناك، قال ليون.

توقّفنا على بُعد خمسة أمتار من «البِرْكة». في السطوع الليليّ الواهن لم نكُن نُميّزُ وُجوهَ أولئك الذين ينتظروننا، لم نكن نميز سوى خيالاتِهم الظلّية. كانت خمسة. عَدَدتُها، مُحاولاً عبثاً اكتشافَ الأعرج.

- تقدّمْ أنت، قال خوستو.

تقدّمتُ مُتمهّلاً نحو الجذع، مُحاولاً أن يحتفظ وَجهي بملامحَ هادئة.

- توقف! صرخ شخص ما. مَن أنت؟

صرخت: أنا خوليان، خوليان ويرطاس. هل أنتم عميان؟

جاء للقائي شبحٌ صغير. كان شالوباس.

قال: كنّا على وشك الذهاب. كنّا نظنّ أن خوستيتو قد ذهب إلى مركز الشرطة ليطلُب منهم الرعاية.

صرخت دون أن أردّ عليه: أريد أن أتفاهم مع رجُل، وليس مع هذه الدّمية.

سأل شالوباس بصوت مُنكسر: أأنت جدّ شجاع؟

- أصمُت! قال الأعرج.

كانوا قد اقتربُوا جميعُهم، وتقدّم الأعرج نحوي. كان ذا قامة طويلة، أطول بكثير من جميع الحاضرين. في الضوء الخافت، لم أكُن أستطيع أن أرى. فقط كنتُ أتخيّل وَجهَه المدرّع بالدماميل، واللون الزيتوني العميق لجلده الأمرد، والثقوب الصغيرة لعينيه، العميقتيْن والقصيرتيْن مثل نُقطتين وسط تلك الكُتلة من اللحم، والمُتقطّعة بسبب النتوءات المُستطيلة لوَجنتيه، وشفتيه التخينتين مثل أصابع، وهي تتدلّى من ذقنه المُثلث مثل ذقن عيدشون. كان الأعرج يغمز في المشية بقدَمه اليُسرى. وكانوا يقولون إنّ لديه، في ساقه تلك، نُدبة على شكل صليب، هي تذكار لخنزير نهشَه لمّا كان نائماً، ولكن لا أحد قد رآها.

- لماذا أحضرتَ ليونيداس؟ قال الأعرج بصوت أجشّ.

- ليونيداس؟ مَن أحضر ليونيداس؟

وأشار الأعرج بإصبعه إلى الجانب. وكان الشيخ على بُعد بضعة أمتار قليلة، على الرمال، ولمّا سمعَ ذِكرَ اسمه اقترب.

- ماذا عنّي! قال. وهو ينظرُ إلى الأعرج بثبات. لستُ في حاجة إلى أن يُحضرُوني. لقد جئتُ وحدي، جئت على قدَمي، لأنني أرغب في ذلك، إلاّ إن كنتَ تبحث عن ذريعة لكي لا تتعارك.

تردّدَ الأعرج قبل أن يُجيب. اعتقدتُ أنه كان سيسبّه وبسرعة، حملتُ يدي نحو جيبي الخلفي.

- لا تتدخّل، يا عجوز، قال الأعرج بلطف. فأنا لن أتعارك معك.

- لا تعتقد أنني جدّ عجوز، قال ليونيداس. فقد مرّغت في التراب العديدَ ممّن كانوا أفضلَ منك.

- حسناً، يا عجوز، قال الأعرج، أثقُ بما تقول. والتفتَ إليّ: هل أنتم مُستعدّون؟

- نعم، قل لأصدقائك ألاّ يتدخّلوا... إن هُم فعلوا ذلك، سيكون أسوأ بالنسبة إليهم.

ضحك الأعرج.

- أنت تعلم جيداً، يا خوليان، أنني لست بحاجة إلى تعزيزات. خُصوصاً اليوم. لا تقلق.

واحدٌ من الذين كانوا يقفون وراء الأعرج، ضحك أيضاً. ومدّ لي الأعرج شيئاً. بسطت يدي: كان نصل المُدية في الهواء وكنت أنا قد أخذتها من حدّها القاطع. شعرتُ بخدش صغير في راحة الكفّ وبقشعريرة، كان المعدن يبدو مثل قطعة جليد.

هل لديك أعواد ثقاب، يا عجوز؟

أشعلَ ليونيداس عود ثقاب وأمسكه بين أصابعه حتى لعقت الشعلة أظافره. في ضوء الجذوة الهشّ، فحصتُ المُدية بعناية، وقِستُها طولاً، وتأكّدتُ من نصلها ووزنها.

- حسناً، قلت.

- شونغا سارَ بين ليونيداس وبيني. ولمّا وصلنا بين الآخرين، كان بريسينيو يُدخّنُ، وكلّ رشفة يقوم بها كانت تضيءُ الوُجوهَ للتو، وجهَ خوستو غير المتأثر، بشفتيه المضغوطتين، ووجهَ ليون، الذي كان يَمضغُ شيئاً، ربّما قذى من العُشب، وبريسينيو نفسه، الذي كان يتعرّق.

من قال لك أنْ تأتي؟ سأل خوستو بشدّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا أحد. أكّد ليونيداس، بصوت عالٍ. جئتُ لأنني أردتُ ذلك. هل تريدُ أنتَ أن تُحاسبَني؟

لم يُجب خوستو. قمتُ بإشارة لشونغا وأظهرتُ له أنه كان قد بقيَ مُتأخراً قليلاً. أخرجَ خوستو مُديته وألقى بها. سقط السلاح في مكان ما من جسم شونغا فانقبضَ هذا الأخير.

- عفواً، قلت، وأنا أجسّ الرمل بحثاً عن المُدية. انفلتت منّي. ها هي هنا.

- سوف تجتثّ عندك التشكّرات قريباً قال شونغا.

بعدئذ، ومثلما كنتُ قد فعلتُ، على ضوء عود ثقاب مرّرَ أصابعَه على نصل المُدية، وأعادها إلينا دون أن يقول شيئاً، وعاد وهو يَمشي، على عجل وبلا ثبات، بخطوات مديدة نحو «البِرْكة». بقينا بضعَ دقائق في صمت، نتنفّس رائحة حُقول القطن المُجاورة، كان يَحملها نسيمٌ دافئ باتجاه الجسر. خلفَنا، في جانبَي المجرى، كانت تُلفح الأضواء المُترنّحة للمدينة. وكان الصمت مُطلقاً تقريباً. أحياناً، يَقطعُه بشكل مُفاجئ نباحٌ أو نهيق.

- مُستعدّون! صاحَ صوتٌ من الجهة الأخرى.

- مُستعدّون! صحتُ.

في كتلة من الرجال الذين كانوا جنب «البركة»، كانت هناك تحرّكات ولغط. بعدئذ انزلق ظلٌّ يعرج حتى وسط الأرض التي كنّا نحدّها كجماعتَين. هنالك، رأيتُ الأعرج يجسّ الأرض بقدميه. كان يتحقّق ما إذا كانت هناك حجارة، فجوات. بحثتُ عن خوستو ببصري. ليون وبريسينيو كانا مرّرا ذراعيهما فوق كتفيهما. خوستو انفصل بسرعة. لمّا كان بجانبي، ابتسم. مددتُ له يدي. بدأ يبتعد لكن ليونيداس وثب وأمسكه من كتفيه. العجوز أخرج بطانية كان يحملها على ظهره. كان بجانبي.

- لا تقترب منهم ولا لِلحظة. - كان العجوز يتحدّث على مهل، بصوت يرتجف قليلاً -. دائماً من بعيد. راقِبهُ حتى يستنفد طاقته. واحذر على الخصوص المعِدة والوَجه.

CamScanner الممسوحة ضوئيا ب

لتكن ذراعك دوماً ممدودة. فلتنحن، واغمس بثبات ... الآن، اذهب، ولتتصرّف كرجل...

استمعَ خوستو لليونيداس ورأسه مطأطأ إلى أسفل. اعتقدتْ أنه كان سيُعانقه، لكنه اقتصرَ على القيام بحركة مُفاجئة. اقتلع البطانية من أيدي العجوز بجرّة واحدة. ثم لفّها على ذراعه، ثم ابتعد، كان يَمشي على الرمل بخطوات ثابتة، وبرأس مرفوع. وبينما كان ينأى عنّا، كانت القطعة المعدنيّة الصغيرة في يَده اليُمنى تبعث التماعات مُنعكسة. توقفَ خوستو على بُعد مترين من الأعرج.

بقيا للحظات بلا حراك، في صمت، يقولان لبعضهما بالتأكيد من خلال العيون مقدار ما يكرهُ أحدهما الآخر، يتأمّلان بعضَهما، والعضلات مُتوتّرة تحت الثياب، واليد اليُمنى تنسحقُ بغضب على المُديتين. من بعيد، شبه مُتخفّيين بالعتمة الدافئة لليل، كانا لا يبدوان رجُلين مُستعدّين للقتال، بل تمثالين مُلتبسي الملامح، تَمّ صبُّهما في مادّة سوداء، أو ظلّين لشابّين وشجرتي خرّوب راسختين على الشاطئ، منعكستين في الهواء وليس على الرّمال. في وقت متزامن تقريباً، وكما لو كانا يستجيبان لأوامر صوت مُستعجل، شرَعا في التحرّك. ربّما كان خوستو هو الأوّل، ثانية واحدة قبل ذلك، بدأ في المكان اهتزازٌ بطيء جدّاً، كان يرتفعُ من الركبتين إلى الكتفين، وحاكاه الأعرج مُتمايلاً أيضاً، دون أن يُبعِدَ القدمين. كان وضعُهما مُتماثلاً. الذراع اليُمنى إلى الأمام، تميلُ قليلاً مع المرفق نحو الخارج، واليد موجّهة للتسديد مُباشرة نحو مركز العدو، والذراع اليُسرى، ملفوفة في لحافات. في البداية كانت تتحرّك أجسادهما فقط، وكانت رؤوسهما، وأقدامهما وأيديهما قد ظلّت ثابتة. وبشكل لا محسوس، مضى الاثنان ينحنيان، ويُمدّدان كاهلهما، والساقان في انثناء، كما لو كانت تستعدّ للقفز في الماء. كان الأعرج أوّل من هاجم، وثب فجأةً إلى الأمام، وطارت ذراعهُ في دائرة سريعة. خطّ السلاح في الفراغ، الذي لامس خوستو، دون أن يجرحه، كان هذا الأخير ما زال بَعدُ لم ينته من الاستعداد، عندما بدأ يدورُ، وكان سريعاً. ودون أن يتنازلَ عن وضع الحماية الذاتيّة، كان يُحكم حصارَه حول الآخر، مُنزلقاً بسلاسة على الرمال بإيقاع يتسارعُ شيئاً فشيئاً. كان الأعرج يدورُ في الموقع. وكان قد انكمش أكثر وبدأ يلتفّ حول ذاته مُتابعاً اتجاهَ خصمه، يُلاحقه بنظرته الوقتَ كلّه، مثلما لو

كان في حالة ذهول. فجأة، توقّف خوستو. ورأيناه يهوي على الآخر بكلّ قوة جسده، ويعود إلى مكانه في ثانية، مثل دمية زنبرك.

- قد فعلها، قال بريسينو، لقد مزّقه.

- في الكتف، قال ليونيداس. لكن بالكاد.

دون أن يُصدر صرخة، وثابتاً في وضعه، واصلَ الأعرج رقصته، بينما لم يكُن خوستو يقتصر على التقدّم في دورات. كان في الآن ذاته، يدنو ويبتعد من الأعرج وهو يلوّح بالبطانية، يفتح ويغلق الحماية الذاتيّة، كان يعرض جسده ويمنعه، نَفوراً ورشيقاً يُغري خصمَه ويَتنحى مثل امرأة غيور. كان يريدُ أن يُصيبه بالدوار، لكنّ الأعرج كانت لديه خِبرة وموارد. كسرَ الدائرة مُتراجعاً إلى الوراء، مُتمايلاً دوماً، مُرغماً خوستو على التوقّف وعلى مُتابعته. كان هذا الأخير يُلاحقه عبر خطوات قصيرة جداً، رأس مُتقدّمة، ووجهه مَحمي بلحاف يتدلّى من ذراعه. كان الأعرج يهربُ وهو يسحبُ قدميه، مُنحنياً حتى كادت ركبتاه تلمسان الرمال. مدّ خوستو مرّتين ذراعه ممدودة، وفي المرّتين لم يعثر إلاّ على الفراغ. «لا تقترب كثيراً»، قال له ليونيداس جنبي بصوت جدّ خفيض لا يستطيع أن يسمعه غيري، في وقت كان قد تقلّص فيه الشبح، الظلّ المُشوه الشاسع، وتراجع على ذاته مثل زنجير، كان يستعيد بفظاظة قامَته الطبيعيّة ومع نموه وتهالكه كان يُزيح خوستو عن بصرنا. ثانية، اثنتان، وربّما ثلاث ثوانٍ بقينا بلا أنفاس، نرى الوَجه المُتجاسر للمقاتلين المتشابكين ونسمع ضوضاء وجيزاً، أوّل ما سمعناه أثناء القتال يُشبه تجشؤاً. ولحظة بعد ذلك انبثق جنب الظلّ العملاق، ظلٌّ آخر أكثر نحولاً ورشاقة، عاد ليرفع بقفزتين جداراً لامرئيّاً بين المُقاتلين. هذه المرّة بدأ الأعرج يدور. يُحرّك قدمه اليُمنى ويُجرجر اليُسرى. وكنتُ أنا عبثاً أبذلُ الجهد من أجل أن تخترق عيناي الظلمة وتقرأ على جلد خوستو ما الذي حدَث في تلك الثواني الثلاث، لمّا كان الخصمان، جدّ مُتصلين مثل عاشقين، يُشكّلان جسداً واحداً. قال ليونيداس بمهلٍ شديد: «أخرج من هناك!». «لماذا، يا للجحيم، تُقاتِل عن قرب شديد؟». وبشكل غامض، كما لو أنّ النسيم الخفيف حملَ له تلك الرسالة السرّيّة، بدأ خوستو في الوثب تماماً مثل الأعرج.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُتواريين ويقظين وشرسين، انتقلا من الدفاع إلى الهجوم ثم بعدها إلى الدفاع بسرعة البرق، لكنّ المُبادرات لم تفاجئ أيّ واحد منهما: الحركة السريعة لذراع العدو مُمتدّة كما لو لرَمْي حجر، تسعى إلى عدم جرح الخصم بل إلى إرباكه، والتشويش عليه لِلَحظة، كسرِ دفاعه، كان الآخر يُجيب تلقائياً رافعاً ذراعه اليسرى، دون أن يتحرّك. لم أكن أستطيع أن أرى وُجوهاً، ولكني كنت أغمضُ عيني وكنت أراها أفضل ممّا لو كنت بينهما؛ الأعرج يتصبّب عرقاً، فمُه مغلقٌ، وعيناه، عينا الخنزير، مُشتعلتان، مُتأجّجتان خلف الجفنين، جلده النابض، خنابتا أنفه الأفطس واتّساع فمه بالشفتين المهتزّتين بارتعاش لا يحتمل. وخوستو بقناعه المُعتاد، قناع الازدراء، المُمَيّز بالغضب، وشفتيه المُبلّلتين حنقاً وتعباً. فتحتُ عيني في الوقت المُناسب لأرى خوستو يَثِبُ مثل مجنون، بشكل أعمى على الآخر، مانحاً إيّاه كلّ المزايا، مُقدّماً وجهَه، كاشفاً بشكل غير معقول جسدَه. الغضبُ ونفادُ الصبر رفعَا جسدَه، وأبقياه بشكل غريب في الهواء، مُناطحاً السماء، هوى فوق فريسته بعُنف. الانفجار المُتوحّش كان قد فاجأ الأعرج في هُنيهة قصيرة جدّاً، بقيَ حائراً، ولمّا عزمَ ومدّد ذراعَه مثل سَهم، وهو يُخفي عن أنظارنا النصل اللامع الذي لاحقناه مُنبهرين، كنّا نعرفُ أنّ هذه الحركة المجنونة من خوستو لم تكُن تماماً عديمة الفائدة. مع الصدمة، الليل الذي كان يلفّنا قد صار آهلاً بالزّمجرات المُمزّقة والعميقة التي كانت تبرزُ مثل شرارات من المُتقاتلين. لم نعرف حينئذ، لن نعرف كم من الوقت ظلاّ مُتشابكين في تلك الكتلة المُتشنّجة مُتعدّدةِ الوُجوه، ولكن حتى من دون تمييز بينهما، ودون أن نعرف مِن أيّ ذراع كانت تنطلقُ هذه الضربات، وأيّ حلق كان يُصدر تلك الزمجرات التي كانت تُحدث مثل أصداء، رأينا عدّة مرّات، في الهواء، النصال العارية للمُدى تهتزّ نحو السماء، أو في أحشاء الظلام في الأسفل، على الجانبين، سريعة ومُضيئة، تختفي وتظهر، تنغرس أو تهتزّ في الليل، مثلما في عرض سحريّ.

وجبَ أن نكون مُتلهّفين وجشعين، دون أن نتنفّس، العيون مُتّسعة، تهمسُ ربّما بكلمات غير مفهومة، حتى ينقسم الهرم البشريّ، مقطوعاً في المركز بضربة سكّين لامرئية. خرج الاثنان مطرودين، كما لو كانا مُمغنطين في ظهرهما، في نفس الآن، وبنفس العُنف. بقيا مُتباعدين على مسافة متر، لاهثين. «يجب أن نُوقفهُما قال صوت

ليون. كفى.» لكن قبل أن نحاول التحرّك، كان الأعرج قد غادر موقعه مثل نيزك. خوستو لم يتفادَ الهَجمة فتدحرج الاثنان على الأرض. كانا يتلويان فوق الرمال، ويتقلّبان الواحد فوق الآخر، وهُما يشقّان الهواء جراحاً ولهاثاً أصمّ. هذه المرّة كان العراك وجيزاً. سرعان ما صارا هادئين، مستلقيين في قاع النهر، كما لو كانا نائمين. كنت أتهيّأ للركض نحوهُما لمّا تكهّن ربّما شخصٌ ما بنيّتي، فالتحقَ فجأة ومَثَلَ واقفاً جنب السّاقط، مُتمايلاً أسوأ من سكران. كان الأعرج.

في العراك، كانا قد فقدا اللحافات، التي كانت مُلقاة أبعد قليلاً، مثل حَجر ذي زوايا متعدّدة. «هيّا»، قال ليون. لكن في هذه المرّة أيضاً حدث شيءٌ جعلنا نبقى ثابتين. كان خوستو قد استوى بصُعوبة مسنداً جسدَهُ بكامله على ذراعه اليُمنى، وهو يُغطّي رأسه بيده الحرّة، كما لو كان راغباً في أن يُجنّب عينيه رؤية رهيبة. لمّا صار واقفاً، تراجع الأعرج خطوات. كان خوستو يتمايل. لم يُبعد ذراعه عن وَجهه. حينئذ سمعنا صوتاً كنّا نعرفه جميعاً، ولكننا لم نكن لنتعرّف عليه هذه المرّة لو أخذنا على حين غرّة في الظلام.

- خوليان! صرخ الأعرج. قل له أن يستسلم!

التفتت لأنظر إلى ليونيداس، لكني عثرت على وجه ليون مُخترقاً: كان يتأمّل المشهد بملامح فظيعة. عدت للنظر إليهما: كانا مُتّحدين مجدّداً.

مُحرّضاً بكلمات الأعرج، أبعَدَ خوستو بلا شك ذراعه عن وَجهه في الثانية التي كنتُ أنا قد سهوْت عن المعركة، كان قد ألقى بنفسه على العدو مُستخرجاً آخرَ قواه انطلاقاً من مرارة المُنهزم. تخلّص الأعرج بسهولة من ذلك الاندفاع العاطفي واللامجدي، واثباً إلى الخلف:

- دون ليونيداس! صرخ مُجدّداً بلهجة غاضبة ومُتوسّلة. قل له أن يَستسلم!

أصمتْ وقاتِلْ! صرخ ليونيداس دون تردّد.

حاولَ خوستو مرّةً أخرى الهجوم، ولكنّنا كنّا نعلم وعلى الخصوص ليونيداس، الذي كان مُسِنّاً وكان قد شهدَ العديد من المعارك في حياته، أنه ليس ثمّة ما يُمكن

القيام به الآن، وأن ذراعه ليس لها القوة حتى لخذش جلد الأعرج الزيتوني اللون. مع القلق الذي كان يولد من الأعماق ويصعد ليصلّ حتى الفم، ويُجفّفه، وحتى العيون، وهي تغيم، رأينا الذراع لا تزال تتعارك في حركة بطيئة للحظة، حتى انكسر الظلّ مرة أخرى: كان شخصٌ ما قد انهار على الأرض بجلبة مكتومة. لقا وصلنا حيث كان يَضطجع خوستو، كان الأعرج قد انسحب نحو رفاقه، وكلّهم جنباً إلى جنب، بدؤوا يبتعدون دون أن يتكلّموا. ضممتُ وجهي إلى صدره، وأنا أحسّ بالكاد مادّة ساخنة كانت تُبلّل عنقي وكتفي، بينما كانت يدي تتفحّص بطنه وظهره ما بين تمزّقات القماش وتغرق أحياناً في الجسد الرّخو، الرطب والبارد، لمياه الجنوح السيّئة. بريسينيو وليون أزالا سترتيهما ولفّاه بعناية ورفعاه من قدميه وذراعيه. وبحثت أنا عن لحاف ليونيداس، الذي كان على بُعد خطوات قليلة، فغطّيتُ به وجهَه، مُتلمّساً، دون أن أنظر. بعدئذ حملناه على الأكتاف بيننا نحن الثلاثة في صفّين، مثل نعش، ومشينا، بخطوات مُتطابقة باتجاه المسلك الذي يرتفع بمُحاذاة ضفّة النهر ويمضي بنا إلى المدينة.

- لا تبك أيّها العجوز، قال ليون. أنا لم أعرف شخصاً شديدَ البسالة والإقدام مثل ابنك. أقول لك الحقيقة.

ليونيداس لم يُجب. كان يسيرُ خلفي، بشكل لم أكن أستطيع أن أراه. على مشارف المرابع الأولى لقشتالة، سألت: هل نأخذه إلى بيتك، يا دون ليونيداس؟

- نعم، قال العجوز على عجل، كما لو أنّه لم يسمع ما كنتُ أقوله له.

روح طاهرة

كارلوس فوينتس

إلى بيرطا مالدونادو

ولكن المناورات اللاواعية للروح الطاهرة

هي أيضاً أكثر تفرّداً من تدبيرات النقائص.

رايموند راديغي، الحفلة الراقصة للكونت أورجيل

خوان لويس، أفكّرُ فيك لمّا أتّخذُ لي مكاناً في الحافلة التي ستأخذني من المحطّة إلى المطار. قدّمت الأمر بشكل مُتعمّد، فأنا لا أريدُ أن أعرف مسبقاً الأشخاص الذين سيسافرون معنا حقّاً في الطائرة. هذه هي تذكرة سفر رحلة أليطاليا نحو ميلانو؛ فقط في غضون ساعة ينبغي أن يركب الحافلة مُسافرو الخطوط الجويّة الفرنسيّة إلى باريس ونيويورك والمكسيك، غير أني مُتخوّف من أن أبكي، أن تبدوَ على ملامحي علاماتُ الخوف أو أن أقوم بشيء سخيف ثم أضطرّ أن أتحمّل نظرات وتعليقات لمدّة ستّ عشرة ساعة. لا يجب لأحد أن يعرف شيئاً. أنت أيضاً تُفضّل أن يكون الأمر هكذا، أليس كذلك؟ أنا دائماً أعتقد أن الأمر كان عملاً سريّاً، لم تقم به أنت لأجل... لا أدري لماذا أفكّرُ في هذه الأمور. ليس لي الحقّ في أن أفسّر أيّ شيء باسمك. وربّما حتى باسمي. كيف لي أن أعرف، خوان لويس؟ كيف يُمكنني أن أسيء إلينا جميعاً مؤكداً أو نافياً أنه ربّما، في تلك اللحظة، أو خلال مدّة أطول - لست أعرف كيف ولا متى قرّرت ذلك، ربّما يكون ذلك مُنذ الطفولة. ولِمَ لا؟ - كانت دوافعك اليأس والألم والحنين أو الأمل؟ الطقس بارد. وتهبّ هذه الريح الباردة من الجبال وتعبرُ فوق المدينة والبُحيرة مثل أنفاس الموت. أغطّي نصفَ وجهي بطيّات صدر المعطف لكي أحتفظ بدفئي الذاتيّ رغم أنّ الحافلة كانت دافئة والآن تنطلقُ بسلاسة، ملفوفة أيضاً في بُخارها. غادرنا محطّة كورنافين عبر نفق وأنا أعرف أنني لن أرى مجدّداً البُحيرة وجسور جنيف، فالحافلة تؤدّي إلى الطريق التي توجد خلف المحطّة وتستمرّ مُبتعدة عن بُحيرة ليمان، باتجاه المطار.

مررنا من الجزء القبيح من المدينة، حيث يعيش العمال الموسميون الذين قدموا من إيطاليا وألمانيا وفرنسا إلى هذه الجنة حيث لم تسقط ولا قنبلة واحدة، وحيث لا أحد تعرّض للتعذيب أو القتل أو الخداع. الحافلة نفسها تعطي ذلك الشعور بالنظافة والنظام والرفاهية التي طالما أثارت انتباهك منذ أن قدمت، والآن إذ أنظف النافذة الصغيرة المكسوة بالبخار بيدي وأرى هذه البيوت الفقيرة جداً أعتقد أنه على الرغم من كلّ شيء، لا يُمكن أن يعيش المرء فيها بشكل سيّئ.

مع سويسرا ننتهي إلى تعزية أنفسنا كثيراً، كنت تقول في إحدى رسائلك، نفقدُ الإحساس بالأطراف القصيّة الجلية للعيان والمُهينة في بلادنا. خوان لويس: في رسالتك الأخيرة لم أكن في حاجة لتقول لي - فأنا أفهم ذلك دون أن أعيشه: وذاك كان دوماً رباط الوحدة بيننا- أنّ ذلك النظام لكلّ ما هو خارجي- دقّة مواعيد القطارات، والاستقامة في التعامُل والتوقّع في العمل والادّخار مدى الحياة - كنت أطلب اضطراباً داخلياً يمكن أن تعادله. أنا أضحك، يا خوان لويس. وراء تكشيرة وجه يُكافح لكبح الدموع، أبدأ في الضحك وجميع الركاب ينظرون إليّ ويشرعون في الغمز واللمز فيما بينهم. هذا ما كنت أريدُ أن أتجنّبه. من حُسن الحظ أنّ هؤلاء هم الذين سيذهبون إلى ميلانو. أضحك وأنا أفكّرُ أنك خرجت من نظام بيتنا في المكسيك إلى فوضى حُرّيتك في سويسرا. هل تفهمني؟ من أمن بلاد الخناجر الدامية إلى الفوضى في بلاد ساعات صوت طائر الوقواق.

قل لي إن لم يكن في ذلك نعمة. أعتذر. لقد حدث ما حدث. وأنا أحاولُ تهدئة نفسي ومُشاهدة القمم المكسوة بالثلوج في جبال جورا، ذلك الجرف الرماديّ الكبير الذي يبحث الآن عبثاً عن انعكاسه في مياه ولدت من أحشائه. لقد كتبتَ لي في الصيف أنّ البحيرة هي عين جبال الألب: تعكسها، ولكنها تحولها إلى كاتدرائية شاسعة مغمورة، وكنت تقول لي إنك حين تغطس تحت الماء كنتَ تغوص بحثاً عن الجبال. هل تعرف أنّ رسائلك توجد معي؟ قرأتها على متن الطائرة التي حملتني من المكسيك، وفي الأيام التي كنت خلالها في جنيف أثناء أوقات فراغي. والآن سأقرؤها أثناء العودة. وحدك أنت الذي يُرافقني في هذه الرحلة. لقد سافرنا معاً كثيراً، يا خوان لويس. لمّا كنّا أطفالاً كنّا نذهب كلّ عطلة نهاية أسبوع

إلى كويرناباكا، حينما كان أبواي بعدُ لا يزالان يمتلكان ذلك البيت المغطى بنبات الجهنمية. علّمتني السباحة وركوب الدراجة. كنا نذهب في أماسي أيام السبت بالدرّاجة إلى القرية، وهكذا تعرّفت على كلّ شيء من خلال عينيك. «أنظري يا كلوديا، إلى الطائرات الورقيّة. أنظري، يا كلوديا، آلاف الطيور في الأشجار. أنظري، يا كلوديا، الأساور الفضيّة، والقبعات المكسيكيّة العريضة، مثلجات الليمون، والتماثيل الخضراء. تعالي يا كلوديا، سنمضي إلى عجلة الحظ.» وبالنسبة لاحتفالات رأس السنة الجديدة، كانوا يأخذوننا إلى أكابولكو وكنت توقظني في وقت مُبكر جداً فنركض على شاطئ هورنس، لأنك كنت تعرف أنّ ذلك كان أفضل وقتٍ للبحر: عندئذ فقط كانت تبدو القواقع والأخابيط، والأخشاب السوداء والمنحوتة والزجاجات القديمة التي يُلقيها مدّ البحر، وأنت وأنا كنا نجمع كلّ ما نستطيع، وإن كنا نعلم أنّهم لن يسمحوا لنا بأخذه معنا إلى مكسيكو، وحقاً، فإنّ هذا الكمّ من الأشياء غير المُجدية لا تتّسع لها السيارة.

من الغريب أنّه في كلّ مرّة أريدُ أن أتذكّر كيف كنت في سنّ العاشرة، وفي الثالثة عشرة، والخامسة عشرة، على الفور أفكّر في أكابولكو. ربّما لأنه خلال ما يتبقّى من السنة كان كلّ واحد يذهب إلى مدرسته، وفقط على ساحل البحر، ونحن نحتفلُ بالانتقال من سنة إلى أخرى، كانت كلّ ساعات النهار تكون في ملكنا. هنالك كنا نُمثّل. في القلاع الصخريّة حيث كنتُ أنا أسيرةَ الأغوال وكنتَ أنت تصعدُ بسيف خشبيّ في يدك، وأنت تصرخ مُقتتلاً مع وُحوش وهميّة لكي تحرّرني. في سُفن القراصنة - قارب من خشب - حيث كنت أنتظرُ في رُعب أن تنتهيَ من اقتتالك في البحر مع أسماك القرش التي كانت تهدّدني. في الغابات الكثيفة لبيي ديلاكويستا، حيث كنا نتقدّم يداً في يد، بحثاً عن الكنز السرّيّ المُشار إليه في الخريطة التي عثر عليها داخل زجاجة. كنت ترافق أفعالك مُترنّماً بموسيقى خلفيّة كنت تبتدعُها في اللحظة ذاتها: دراميّة، في ذروة مُتأبّدة. الكابتن سانغري، صاندوكان، إيفانهو: كانت شخصيتك تتغيّرُ مع كلّ مُغامرة. وكنت أنا دوماً الأميرة المهدّدة، بلا اسم، مُطابقة لنموذجك الغامض.

كان ثمة فراغ فقط: عندما أكملتَ خمسَ عشرة سنة، كنتُ أنا في الثانية عشرة

فقط من عمري، وشعرتُ أنت بالخجل من السير معي. لم أفهم، لأنني كنتُ أراك مثلما أراك دائماً، نحيلاً وقويّاً، مُحترق الجلد، مع شعر كستنائي مُجعّد ومُحمرّ بالشمس. ولكن في العام الموالي توافقنا وبدأنا نمشي معاً من جديد، ولكن ليس لجمع القواقع أو لخلق المغامرات، بل سعياً لتمديد يوم كان يبدو لنا قصيراً جدّاً وليلة يحظرونها علينا، كان يتحوّل إلى إغراء وكانت مُطابقة لإمكانيات جديدة لحياة اكتُشفت حديثاً وتمّ افتتاحها للتو. كنّا نمشي عبر الفارالون بعد العشاء، مُمسكين يداً بيد دون أن نتحدّث، ودون أن ننظر إلى الجماعات التي كانت تعزفُ القيثار حول شعلات النار أو أزواج الرفقة الحميمة الذين يُقبّلون بعضهم البعض ما بين الصخور. لم نكُن بحاجة إلى أن نقول بأن الآخرين كانوا يُثيرون شفقتنا. لأننا لم نكُن بحاجة إلى أن نقول إن أفضل ما في العالم عندنا كان هو أن نسير معاً في الليل، مُمسكين بعضنا يداً بيد دون أن نتلفّظ بكلمة، كنّا نتواصل في صمت بتلك الشيفرة، ذاك اللغز الذي لم يكُن أبداً، بيني وبينك، حافزاً للسخرية أو التحذلق. كنّا جادّين دون أن نكون رسميّين، أليس كذلك؟ وربّما كنّا نتعاون دون أن ندري، بطريقة لم أتمكّن قط من تفسيرها جيّداً، ولكن كانت لها علاقة بالرمال الساخنة من تحت أقدامنا الحافية مع صمت البحر في الليل، مع احتكاك خاصرتينا بينما كنّا نسير، ومع سروالك الجديد الأبيض والطويل على المقاس، ومع تنورتي الحمراء والواسعة: كنّا قد غيّرنا خزانة لباسنا كاملة وكنّا قد هربنا من دعابات وخزي وعنف أصدقائنا، أنت تعرف، يا خوان لويس، أن قلّة جدّاً توقّفوا عن أن يكونوا في الرابعة عشرة، تلك الرابعة عشرة التي لم تكُن في ملكنا. الازدهاء بالرجولة يعني أن تكون في الرابعة عشرة مدى الحياة؛ هو خوف قاس. أنت تعرف ذلك، لأنك أيضاً لم تستطع تجنّب الأمر. بدلاً من ذلك، كلّما بقيت طفولتنا في الخلف، كنتَ أنت تخوض كلّ التجارب المشتركة، في سنّك كنت ترغب في أن تتجنّبني. ولهذا السبب تفهّمت، بعد سنوات من عدم تحدّثك معي تقريباً (ولكنّي كنت أتجسّس عليك من النافذة، كنت أراك تخرج في هيئة قابلة للتحويل وسط جمع من الأصدقاء، تأتي متأخّراً وأنت في حالة من الغثيان)، عندما ولجتُ أنا تخصّص الفلسفة والآداب وولجتَ أنت تخصّص الاقتصاد، بحثتَ عني، ليس في البيت، مثلما كان من الطبيعي أن يحدث، ولكن في كلية ماسكارونيس، ودعوتني لتناول قهوة في مساء ما في ذلك القبو شديد الحرارة والمليء بالطلاب.

لاطفتْ يدي وقلت لي: سامحيني، يا كلوديا.

ابتسمتُ وفكّرت أنه بغتة، كانت تُستعادُ كلُّ لحظات طفولتنا، ولكن ليس لتمديدها بل للعثور على نهاية، اعتراف متفرّد يُشتّتها إلى الأبد.

- عن ماذا؟ -أجبتك-. يروقني جدّاً أن نعود مجدّداً للتحدّث معاً. لا نحتاج إلى أكثر من ذلك. لقد كنّا نرى بعضَنا كلّ يوم، ولكن الأمر كان كما لو أنّ الآخر غير موجود. الآن يروقني جدّاً أن نصيرَ من جديد أصدقاء كما كنّا من قبل.

- نحن أكثر من أصدقاء، يا كلوديا. نحن أخوان.

- أجل، لكن هذا حادث عرَضيّ. كما ترى، ما دُمنا أخوين فقد أحببنا بعضَنا البعض جدّاً منذ أن كنّا طفلين، ثم بعد ذلك لم نتجشّم حتى عناء التحدّث بيننا.

- أنا سوف أذهب، يا كلوديا. لقد قلتُ ذلك لوالدي. هو ليس موافقاً على ذلك. يعتقد أنني يجبُ أن أنهي الدراسة. لكن أنا في حاجة للذهاب.

- إلى أين؟

- تمكّنتُ من الحصول على منصب عمل في هيأة الأمم المتّحدة في جنيف. وهنالك أستطيع أن أواصل دراستي.

- حسناً تفعل، يا خوان لويس.

قلتَ لي ما كنت أعرفه مُسبقاً. قلت لي أنك لم تعُد تحتمل أكثر بيوت الدعارة، والتدريس اعتماداً على الذاكرة، وواجب أن تكون فتى ذا رجولة، الوطنيّة، والتظاهر بعمق المشاعر الدينيّة، وانعدام الأفلام الجيّدة، وانعدام وجود نساء حقيقيّات، رفيقات ذوات العمر نفسه واللواتي يعشن معك... لقد كان خطاباً مُكتملاً قيل بصوت خفيض على طاولة مقهى ماسكارونيس تلك...

- إن الحياة هنا غير مُمكنة. أقول لك ذلك على محمل الجدّ. أنا لا أريد أن أخدم لا الربّ ولا الشيطان: أريد أن أحرق كلا الطرفين معاً. وهنا لا تستطيع أن تفعل ذلك، كلوديا. إذا كنت ترغب فقط في العيش، وكنت خائناً بالقوة. هنا يُجبرونك على أن

تكون في الخدمة، أن تتخذ مواقف، إنها بلاد بلا حرية كي يكون المرء هو ذاته. أنا لا أريد أن أكون إنساناً مهذباً. لا أريد أن أكون مُجاملاً، كذاباً، جدّ رجولي، مُتملقاً، رقيقاً وذكياً. ليس هنالك بلدان اثنان مثل المكسيك ... لحسن الحظ. أنا لا أريد أن أمضي من ماخور إلى ماخور. ثم، خلال الحياة برمّتها، عليك أن تعامل النساء بعاطفة وحشيّة ومُهيمنة، لأنك لم تصل قط إلى فهمهنّ. أنا لا أريد ذلك.

- وماذا تقول أمك؟

- سوف تبكي. لا يهمّ الأمر. هي تبكي لأتفه الأسباب، وليس قليلاً؟

- وأنا، يا خوان لويس؟

ابتسم بشكل طفولي: ستأتين لزيارتي، يا كلوديا، أقسمي على أنك ستأتين لرؤيتي!

لمْ آتِ فقط لرؤيتك. جئت لأبحث عنك، لآخذك عائداً إلى المكسيك. وقبل أربع سنوات، عند وداعنا، قلت لك:

- فقط، تذكّرني كثيراً. إبحث لك عن طريقة لتكون دوماً معي.

أجل، كتبتَ لي متوسلاً أن أزورك، لديّ رسائلك. عثرتُ على غرفة وحمّام ومطبخ في أجمل مكان بجنيف، في ساحة بورغ دوفور. كنت قد كتبتَ لي أنها كانت في الطابق الرابع، وسط الجزء القديم من المدينة، حيث يمكن أن تشاهد من هناك الأسطح العالية، وأبراج الكنائس، والنوافذ والمناور الضيقة، وفي البعيد البحيرة التي تتيه عن الأنظار، والتي تصل حتى فيفي ومونترو وشيون. كانت رسائلك مُمتلئة بلذة الاستقلال. كان عليك أن ترتّب سريرك وتكنس وتعدّ وجبة الإفطار وأن تنزل إلى الملبنة المُجاورة. وكنتَ تشرب كأسك في مقهى الساحة. لكم تحدّثتَ عنه. كان اسمه لا كليمانس، وكانت له ظلّة بخطوط خضراء وبيضاء وهناك كان يتمّ الاتفاق على موعد مع كلّ شخص يستحقّ المعاشرة في جنيف. هو ضيق جداً: بالكاد ستّ طاولات أمام منضدة الحانة حيث تقدّم العاملاتُ شرابَ الكشمش وهنّ يرتدين زيّاً أسود ويقُلن للجميع: مسيودام. بالأمس جلست لأشرب قهوة وكنت أنظر إلى كلّ أولئك الطلبة بملافِعهم الطويلة وقبّعاتهم الجامعيّة، إلى الفتيات الهنديات بسارياتهن

التي تشوش عليها المعاطف الشتويّة، إلى الدبلوماسيين بجواهرهم المزروعة في طيات صدور ستراتهم، إلى المُمثلين الهاربين من الضرائب والملتجئين إلى شاليه على ضفة البحيرة، إلى الشابات الألمانيات والشيليات والبلجيكيات والتونسيات اللواتي يشتغلن في المنظمة العالميّة للشغل. كتبت أنه يوجد جنيفان. المدينة المألوفة والمنظّمة التي اكتشفها ستندال باعتبارها زهرة بدون شذا، التي يسكنها السويسريون وهي الستار الخلفيّ للأخرى، مدينة العبور والمنفى، المدينة الأجنبية للقاءات الصدفوية، للنظرات والأحاديث المُباشرة دون الخضوع للقواعد التي مَضى السويسريون يحرّرون الآخرين منها. كان عمرك ثلاث وعشرين سنة لما حللت هنا، وأتصور كيف كان حماسك.

لكن كفى من ذلك (كتبت). يجب أن أقول لك إنّي أدرس في دورة للأدب الفرنسي وهناك التقيتُ ... كلوديا، لا أستطيع أن أفسّر لك ما أشعر به ولا أحاول حتى أن أفعل ذلك لأنك دائماً كنت تفهمينني دون حاجة إلى كلمات. اسمها إيريني، وأنت لا تعرفين كم هي جميلة وذكية وظريفة. هي تدرس الأدب هنا وهي فرنسيّة. يا لغرابة الأمر، تدرس التخصّص نفسَه الذي تدرسينه أنت. وربّما لهذا السبب أعجبتُ بها مُباشرة. ها ها ها. "أعتقد أن الأمر استمرّ لمدّة شهر. أنا لا أذكر. كان ذلك قبل أربع سنوات". ماري جوزي تتحدّث كثيراً، لكنّها تسلّيني. ذهبنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في دافوس، ووضعتني في موقف سخريّة لأنها متزحلقة جيّدة على الثلج وأنا لا أعرف شيئاً من ذلك. يقولون إن ذلك يُتعلّمُ عندما يكون المرء طفلاً. أعترف أنّي عانيتُ ضغطاً ففدنا نحن الاثنان إلى جنيف يوم الاثنين بما أنّنا كنا قد غادرناها يوم الجمعة، لا لشيء آخر سوى أنّ كاحلي قد التوى. ألا يُضحكك الأمر؟ وبعدئذ جاء الربيع. دوريس إنجليزية وهي ترسم. أنا أعتقد أنّها تمتلك موهبة حقيقيّة. نحن نستغلّ عطلة عيد الفصح للذهاب إلى وينجن. تقول إنها تمارس الحُبّ لكي يشتغل لاوعيُها الخاصّ، وتقفز من السرير لكي ترسم لوحاتها الزيتيّة والقمّة البيضاء لليونغفراو أمامها. تفتح النوافذ وتتنفّس بعمق وترسم عارية بينما أنا أرتعش من البرد. تضحك كثيراً وتقول إني كائن استوائي وغير مُتنام وتُقدّم لي قدحاً من شراب الكيرش لتدفئتي. «دوريس منحتني الضحكة خلال السنة التي كنّا نلتقي خلالها». «أفتقد فرحها،

لكنها قرّرت أن سنة في سويسرا كانت كافية، فذهبت مع غلبها وحوامل لوحاتها للعيش في جزيرة ميكونوس. ذاك أفضل. استمتعت، ولكن ما يهمّني ليس امرأة مثل دوريس. واحدة ذهبت إلى اليونان وأخرى قدمت من اليونان. «صوفيا هي أجمل امرأة عرفتها، أقسمُ لك. أنا أعلم أنّ المكان عادي، ولكنها تبدو واحدة من تماثيل عذراى كارواي، وإن لم يكن بالمعنى المبتذل. إنها تمثال لأنّ بالإمكان تأمّلها من جميع الزوايا: أجعلها تدور عارية في الغرفة. ولكن الأهمّ هو الهواء الذي يُحيط بها، والفضاء المُحيط بالتمثال، أتفهمين ما أقصد؟ المساحة التي تشغلها والذي يسمحُ لها بأن تكون فاتنة. هي حالكة، ولديها حاجبان كثيفان جدّاً، وغدا، كلوديا، ستمضي مع شخص جدّ غني إلى الريفييرا الفرنسيّة. كئيب، ولكنّي راض، أخوك الذي يُحبّك، خوان لويس».

وكريستين، وكونسويلو، وسونالي، وماري- فرانس، وإنغريد ... النماذج كانت في كلّ مرّة جدّ قصيرة، وأكثر لامبالاة.

كُنتَ قلقاً بشأن العمل وتتحدّث كثيراً عن زملائك، وعن عاداتهم الوطنيّة المُستهجنة، علاقاتهم بك، عن مواضيع المحاضرات وعن الرواتب والأسفار وحتى عن معاشات التقاعد. لم تكن راغباً في أن تقول لي إنّ ذلك المكان، مثل أيّ مكان آخر، شرع للتوّ في خلق مواثيقه الهادئة وإنك كنتَ تمضي في سقوطك نحو ميثاق الموظف الأمميّ. حتى وصلت البطاقة بمشهد بانورامي لمونترو وحروفك المزدحمة وهي تحكي عن الغذاء في مطعم رائع وتتأسف عن غيابي مع توقيعين اثنين، خربشتك واسم غير مقروء، لكنه مكرّرٌ بعناية في الأسفل، بحروف طباعة: كلير.

آه، أجل، بدأتَ تقدّم الأشياء بالتدريج. لم تقدّمها مثل الأخريات. أولاً كان العمل الجديد الذي كان سيتمّ إسناده لك. وبعد ذلك أنه مُتعلّق بالدورة المُقبلة لمجلس ما. ثم مباشرة، أنك كان يحلو لك التعامل مع زملاء جُدد، ولكنك تشعر بالحنين إلى القدامى. وبعدئذ أنّ الأصعب هو التعوّد على موظفي الوثائق الذين لا يعرفون عاداتك. وأخيراً أنك كنت محظوظاً في العمل مع موظف «منسجم»، وفي الرسالة التالية: اسمها كلير. وقبل ثلاثة أشهر كنتَ قد أرسلت لي البطاقة من مونترو. كلير

كلير.

أجبتك: «صديقي بييرو». ألا يمكنك أن تكون صريحاً معي؟ منذ متى كانت كلير؟ أريد أن أعرف كلّ شيء. كنت أطالب بمعرفة كلّ شيء. خوان لويس، ألم نكُن أفضل صديقين قبل أن نصير أخوين؟ لم تكتب خلال شهرين. ثم جاء مظروف مع صورة في الداخل. أنت وهي مع النافورة العالية في الخلف والبحيرة خلال الصيف. أنت وهي تستندان إلى الحظار. ذراعك حول خصرها، وهي جدّ فاتنة وذراعها على الحوض المليء بالزهور. لكن الصورة لم تكُن جيدة. كان من الصعب إبداء حُكم على وجه كلير. نحيلة ومُبتسمة، أجل، بشكل ما شبيهة بمارينا فلادي أكثر نحولاً، ولكن مع نفس الشعر الأملس، الطويل والأشقر. بكعب مُنخفض. وصُدرة صوفية بلا أكمام. مقوّرة.

قبلت بذلك دون أن يوضّح أي شيء. أولاً الرسائل تحكي الوقائع. هي كانت تعيش في نُزل بشارع إميل جونغ. كان والدها مُهندساً، أرمل وهي كانت تعمل في نيوشاتل. أنت وكلير كنتما تذهبان معاً للسباحة في الشاطئ. كنتما تشربان الشاي في لا كليمانس. وكنتما تريان الأفلام الفرنسيّة القديمة في سينما بشارع مولار، تتناولان العشاء أيام السبت في بلادارجون وكلّ واحد منكما كان يؤدّي عن نفسه. وخلال أيام الأسبوع كان كلٌ واحد منكما يخدم الآخر في كافتيريا قصر الأمم. في بعض الأحيان تأخذان معاً الترام، تذهبان إلى فرنسا. وقائع وأسماء، أسماء، وأسماء مثلما في دليل: كي دي بيرج، الشارع الأكبر، كاف أبوب، محطة قطار كورنافين، مأوى لامير روايوم، شاميل، بلفار دي باستيون.

ثمّ بعد ذلك المُحادثات. ذوق كلير بصدد بعض الأفلام وبعض القراءات، والحفلات الموسيقيّة، والمزيد من الأسماء، هذا النهر من أسماء رسائلك (مأساة غريبة وأطفال الجنّة، سكوت فيتزجيرالد ورايموند راديجيه، شومان وبرامس) وفيما بعد قالت كلير، كلير تعتقد، كلير تحدس، الشخصيات التي لها بطاقة هوية تعيش الحريّة باعتبارها مؤامرة مُخزية. لقد اخترع فيتزجيرالد الموضة، والإيماءات وخيبات الأمل التي لا تزال تُغذّينا. القداس الألماني يحتفل بكل الميتات المدنّسة. نعم، أجبتك.

أوروئكو قد توفيت للتو، وفي الفنون الجميلة ثمّة استعادة ضخمة لدييغو. وملفّات أخرى، كلّ شيء قد تمّ نقله، كما طلبت منك ذلك.

- في كلّ مرّة أسمع ذلك، أقول إنّ الأمر كما لو أنّنا أدركنا أنّه من اللازم أن نُكرّس كلّ ما تمّت إدانته حتى الآن، يا خوان لويس. أن نقلب القفاز. من الذي شوّه خلقتنا، يا حبيبتي؟ ليس هناك سوى وقتٍ قليل جدّاً لاسترداد كلّ ما قد سُرق منّا. لا، لن أقترح على نفسي أيّ شيء، هل ترى؟ لن نضعَ خططاً. أعتقد نفس ما يعتقده راديغي: إن المناورات اللاواعية لروح طاهرة هي أيضاً أكثر تفرّداً من تدبيرات النقائص.

ماذا يُمكن أن أجيبك؟ هُنا ما يحدث دائماً، يا خوان لويس. أبي وأمّي حزينان جدّاً لأنك لن تنضمّ إلينا للاحتفال بالذكرى الفضية لزواجهما. لقد تمّت ترقية أبي نائبَ رئيس لشركة التأمين وهو يقول إن ذلك هو أفضل هدية للذكرى. وأمي، مسكينة، كلّ يوم تختلق مزيداً من الأمراض. ولقد بدأ تشغيل القناة التلفزيونيّة الأولى. أنا أستعدّ لامتحانات السنة الثالثة. أحلمُ قليلاً بكلّ ما تعيشه أنت. وأنا أشيّدُ وهماً بالعثور عليه في الكُتب. أمس كنت أحكي لفيديريكو كلّ ما تفعله، وتراه، تقرؤه وتسمعه، ونظنّ أنه ربّما يُمكن أن نذهب لزيارتك لو كنتَ مستعدّاً لاستقبالنا. ألا يُمكنك العودة إلى الوراء في يوم من الأيام؟ ألا يُمكنك الاستفادة من العطلة القادمة، أليس كذلك؟

كتبتَ أن الخريف كان مختلفاً بجانب كلير. كنتما تخرجان للمشي كثيراً أيام الآحاد، يداً في يد، دون أن تتكلّما. كانت تستمرّ في الحدائق رائحة أخيرةٌ لزهر ياقوت مُتعفّن، ولكن الآن رائحة الأوراق المُحترقة تُلاحقكما خلال تلك النزهات الطويلة التي تذكّرك بنزهاتنا على الشاطئ قبل سنوات، لأنّه لا أنت ولا كلير تتجرآن على كسر حاجز الصمت، رغم الأشياء التي يُمكن أن تحدث لكُما، ورغم الإشارات التي تسبقُ لفز الفصول المُنكسرة هذا على ضفافه، في اتصاله بالياسمين والأوراق اليابسة. في نهاية المطاف، الصمت. كلير كلير - كتبتَ لي-، لقد فهمت كلّ شيء. لديّ ما كان عندي دوماً. الآن أستطيع أن أتملّكك. الآن قد عدتُ للعودة إليك، كلير.

مرّة أخرى قلتَ في رسالتي التالية إني كنت أنا وفيديريكو نستعدّ معاً للامتحان وإنّنا سنذهب لقضاء نهاية السنة في أكابولكو. لكنّني شطبتُ ذلك قبل أن أبعث لك

بالرسالة. في رسالتك لم تسأل من يكون فيديريكو -ولو كنتَ قد استطعت أن تفعل ذلك اليوم لما كنتَ قد عرفت كيف أجيبك-. عندما حلّت العطلة، لم يجعلوني أستقبل مكالماته. مادمتُ لم أعد أراه في المدرسة؛ كنت وحيدة مع والديّ، في أكابولكو. لم أحك لك شيئاً عن ذلك. توقّفت عن الكتابة إليك لأشهر عديدة، ولكن رسائلك تواصل قدومها. ذلك الشتاء، ذهبت كلير للعيش معك في بيت بورغ دي فور. لماذا أتذكّر الرسائل التي أعقبت ذلك. «كلير، كلّ شيء جديد. لم نكن قط من قبل معاً عند الفجر. قبل الآن، تلك الساعات لم تكن تدخل في الحساب. كانت جزءاً ميتاً، من اليوم والآن غدت تلك التي لن أبدّلها بأيّ شيء. لقد عشنا جدّ متوخّدين دوماً، خلال جولات المشي، في السينما، في المطاعم، في الشاطئ، نتظاهرُ بالمُغامَرات، لكننا دوماً كنّا نعيش في غرف مُنفصلة. وأنت تعرفين كلّ ما أفعله، وحيداً، وأنا أفكّر فيك؟ الآن لا أضيع تلك الساعات. أقضي الليلة كلّها خلفك، ذراعاي حول خصرك، وظهرك مُلتصق بصدري، وأنا أنتظر انبلاج الفجر. أنت تعرفين ذلك تتّجهين نحوي وتبتسمين لي بعيون مُغلقة، يا كلير، بينما أنا أسحبُ الشرشف، وأنسى الزوايا التي قمت بتدفئتها طوال الليل، وأسألك إن لم يكن هذا ما كنّا نتمنّاه دوماً، مُنذ البداية، عندما نلعب وعندما كنّا نمشي في صمت ونحن نُمسك بعضُنا البعض يداً بيد. كان يجب علينا أن ننام تحت السقف ذاته، في بيتنا الخاصّ، أليس كذلك؟ لماذا لا تكتبين لي، يا كلوديا؟ يُحبّك، خوان لويس».

لعلك تتذكّر دعاباتي. أن نحبّ بعضُنا البعض على الشاطئ أو في فندق تحيط به البحيرات والثلوج ليس مُماثلاً في شيء للمعاشرة والعيش معاً كلّ يوم. بالإضافة إلى ذلك، فأنتما تعملان معاً في المكتب نفسه. سوف تنتهيان إلى الإحساس بالملل. وسيتمّ فقدان الجِدّة. الاستيقاظ معاً. لم يكن لطيفاً جدّاً، في الواقع. هي سترى كيف تغسلُ بالفرشاة أسنانك. وسوف تراها أنت وهي تُزيلُ المساحيق، تدهن المراهم، وتضعُ الخلطات ... أعتقد أنك قد ارتكبتَ خطأ، يا خوان لويس. ألم تكن ذاهباً للبحث عن الاستقلاليّة؟ لماذا ألقيتَ هذا العبء على كاهلك؟ في هذه الحالة، كان من الأنسب لك أن تبقى في المكسيك. لكن يبدو أنه من الصعب الهروب من الأوفاق التي تقّت تربيتنا عليها. في العُمق، على الرغم من أنّك لم تُكمل الجوانب الشكليّة، فأنت

تفعل ما كانت تنتظره دوماً منك ماما وبابا والجميع. لقد صرتَ رجلاً مُنظّماً. إلى حدّ أنّنا نلهو مع دوريس وصوفيا وماري جوزي. مؤسف حقاً.

لم نتبادل كتابة الرسائل منذ عام ونصف. حياتي لم تتغيّر على الإطلاق. وأصبح العمل قليلَ الأهمية، مُتكرّراً. كيف سيُعلّمونك الأدب؟ مرّةً جعلوني على اتّصال مع بعض الأشياء، عرفت أنني يجب أن أحلّق بشكل مُنفرد، أن أقرأ وأكتب وأدرس لحسابي الخاصّ، وبقيت مستمرّة في الحضور للدروس انضباطاً، إذ كان يجب عليّ أن أنهي ما كنت قد بدأته.

يصبح الأمر بذلك في غاية الغباء والتحذلق حتى إنّهم يواصلون شرح ما كان المرء يعرفه عن النظم على أساس الخطاطات والجداول التركيبيّة. وهذا أسوأ ما في أمرِ أن تستبقَ الأساتذة إلى الأمام، وهُم يعرفون ذلك لكنّهم يُخفون الأمر، حتى لا يبقوا بدون عمل. كنّا قد بدأنا ندرس الرومانسية وكنت أقرأ فيرباك ورولف، حتى أني اكتشفت ويليام جولدنج. كنت قد جعلتُ الأساتذة في حالة خوف، وارتياحي الوحيد في تلك المرحلة كان بسبب الامتداحات في الكلية: كلاوديا طالبة تعِدُ بآمال كبيرة. أغلقتُ على نفسي غرفتي أكثر من ذي قبل، أعذتها على ذوقي الخاصّ، نظّمت كتبي، وعلّقتُ الصور ووضعتُ جهازي لدورة الأسطوانات وكانت أمّي قد ملّت من تكرار التماساتها لي بأن أتعرّف على الفتيان وأن أخرج للرقص. لكن في النهاية تركوني أنعمُ في سلام. قمتُ بتغييرات قليلة في خزانة ملابسي، من الألبسة المطبوعة بالصور التي عرفتها أنتَ إلى القميص الأبيض والتنورة الداكنة اللون، والبدلة المخيطة، إلى ما يجعلني أحسّ نفسي قليلاً أكثر جدّيّة وأكثر صرامة وأكثر بعداً.

يبدو أنّنا وصلنا إلى المطار. تلتفّ شاشات الرادار فأتوقّف عن التحدّث إليك. ستكون اللحظة ثقيلة. يتحرّك المسافرون مُجدّداً. أمسكُ حقيبتي اليدويّة وغلبة المكياج ومعطفي. أبقى جالسة في انتظار أن ينزلَ الآخرون. أخيراً يقول لي السائق:

- ها نحن سيدتي، الطائرة ستُقلع بعد نصف ساعة.

لا، تلك طائرة أخرى، تلك التي ستذهب نحو ميلان. أسوّي وضع قبّعتي الجلدية

وأنزل. ثمّة برد نديّ والضبابُ أخفى الجبال. لا يسقط المطر، لكن الهواء يحتوي ملايين القطراتِ المنكسرة والخفية: أحسّها في شعري. أداعبُ شعري الأشقر والسبط. أدخلُ البنايةَ وأتوجّهُ إلى مكتب الشركة. أتلفّظ باسمي فيتثبتُ الموظفُ بصمتٍ. يلتمسُ منّي أن أتبعه. مضينا سيراً عبر ممرّ طويلٍ جدّ مضاءٍ وبعدئذ خرجنا إلى المساءِ القارس. قطعنا مسافة طويلة مُبلطة حتى وصلنا إلى شكلٍ يُشبهُ حظيرة طائرات. أمشي بقبضتي مشدودتين. الموظف لم يحاول أن يتحدّث إليّ. كان يسبقني محافظاً قليلاً على الرسميات. ندخلُ إلى المخزن. ثمّة رائحة خشب مُبلّل، رائحة قش وقطران. وثمّة العديد من الأدراج المُرتّبة بنظام، وهناك أيضاً ما يُشبه الأسطوانات وحتى كلب صغير ينبح في قفص. غلبتك خفية بعض الشيء. يُبرزها لي الموظف مُنحنياً باحترام. أتلمّس حافة التابوت ولا أتكلّم لبضع دقائق.

يمكثُ البكاء في أحشائي، لكنني مثلما لو كنت أبكي. ينتظر الموظف، وعندما يعتقد أنّ الوقت مُناسبٌ يُبدي لي الأوراق المُختلفة التي كنتُ قد أعددتُها خلال الأيام الأخيرة والتراخيص والموافقة المبدئيّة للبوليس، والمُطابقة الصحيّة، وموافقة القنصليّة المكسيكيّة وشركة الطيران. طلب منّي أن أوقّع بالموافقة على الوثيقة النهائيّة للشحن. أفعلُ ذلك بينما كان هو يلعق الجزء الخلفيّ الصمغيّ من بطاقات لصيقة ويضعها على جانب الفجوة الضيقة من التابوت. ثم يختم عليها. أعود مرّة ثانية إلى تلمّس الغطاء الرماديّ ثم نعود إلى المبنى المركزيّ. يُغمغم الموظف لي بتعازيه ويودّعني.

بعد ترتيب الوثائق مع الشركة والسلطات السويسريّة، أصعدُ إلى المطعم وأنا أحملُ ورقة المُرور بين أصابعي وأجلسُ وأطلب قهوة. أنا جالسة قرب نافذة كبيرة أشاهدُ الطائرات تبدو وتختفي فوق المدرّج. تضيع في الضباب أو تنبثقُ منه، لكن يسبقها ضجيج المحرّكات أو يبقى خلفها مثل أثر صائت. تُخيفني. أجل، أنت تعرفُ أنّها تُشعرني بخوف رهيب ولا أرغبُ أن أفكّر فيما ستكون عليه رحلة العودة هذه معك، في عزّ الشتاء، وأنا أقدّم في كلّ مطار الوثائق باسمك والتراخيص لتستطيع العبور. يأتونني بالقهوة وأشربها بلا سكّر. تجعلني بحالة جيّدة. لم تعُد يدي مُرتعشة بعد شُربها.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

مُنذ تسعة أسابيع مزّقت غلاف رسالتك الأولى خلال ثمانية عشر شهراً وتركت فنجان القهوة يسقط فوق المائدة. جثوتُ على عجل لتنظيفه بالتنورة ثم وضعت أسطوانة، ومشيت عبر أنحاء الغرفة أتأمل كِعاب الكتب، مُشبِكة ذراعي، حتى إني قد قرأتُ بعض الأبيات الشعريّة، بتأنٍ وأنا ألمس غلاف الكتاب، واثقة من نفسي، بعيداً عن رسالتك المجهولة والمخبّأة داخل الغلاف المُمزّق الذي يضطجعُ على ذراع الكرسي.

أيّتها الملابس الحلوة التي أعثرُ عليها سيئة،

عذابٌ وفرحاتٌ لمَا كان الإله راغباً في ذلك!

أنتما معاً في ذاكرتي

وخلال موتي معها مُتحالفتين.

«طبعاً تشاجرنا. هي تخرج بعد أن تخبط الباب وأنا أكادُ أبكي من الغضب. أحاولُ أن أشغل نفسي لكنّي لا أستطيع فأخرج للبحث عنها. أنا أعرف أين هي. قبالتي، في لاكليمنس، تشرب وتدخّن بعصبيّة. أنزل الدرج الذي يُحدث صريراً وأخرج إلى الساحة، هي تتطلّع إليّ من بعيد وتتظاهر أنها تتجاهلني. أعبرُ الحديقة وأصعد إلى المستوى الأعلى لبورغ دو فور بتأنٍ، وأصابعي تُلامس الدرابزين الحديديّ. أصِلُ المقهى وأجلس جنبها في أحد الكراسي من خشب الصفصاف. نحنُ نجلس في الهواء الطلق. في الصيف يجتاحُ المقهى الأرصفة وتُسمع موسيقى الأجراس سان بيير. تتحدّث كلير إلى النادلة. إنهما تقولان حماقات عن الطقس بلهجة الاحتقار السويسريّة البغيضة. آملُ أن تطفئ كلير السيجارة في المنفضة وأفعل أنا الشيء نفسه لألمس أصابعها. إنها تنظرُ إليّ. أتعرف كيف، يا كلوديا؟ مثلما كنتِ تنظرين إليّ، مرفوعة فوق صخور الشاطئ، مُنتظرة أن تتخلّصي من الغول. كان يجب عليك أن تتظاهري بأنك لا تعرفين ما إذا كنت قادماً لإنقاذك أو لقتلك باسم سجّانك. لكنك أحياناً لم تكوني تستطيعين كتمان الضحكة، وفي لحظة ما يتهاوى الخيال إلى أسفل. المحاكمة بدأت بسبب تهاون مني. اتهمني بكونه مهملاً وبأني أخلقُ له مشكلاً

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أخلاقياً. ماذا كان يُمكننا أن نفعل؟ لو كان لديّ على الأقل إجابة مُباشرة، لكن لا، ببساطة كان قد عزلني، صامتاً وفظاً، بل حتى إنه لم يهرب من هذه الوضعية لكي يقوم بشيء ذكيّ. في البيت كان ثمة كتبٌ وأسطوانات، لكني انشغلت بحلّ الكلمات المُتقاطعة في المجلات.

- يجب عليك أن تقرّر، يا خوان لويس. من فضلك.

- أنا أفكّر.

- لا تكن سخيفاً. أنا لا أقصد ذلك. أقصد كلّ شيء. هل سنكرّس الحياة بكاملها لتصنيف وثائق هيأة الأمم المتحدة؟ أم أننا فقط نعيش مرحلة انتقاليّة تسمح لنا أن نكون شيئاً آخر، شيئاً نحن لا نعرفه حتى الآن؟ أنا على استعداد لفعل أيّ شيء، يا خوان لويس، لكنّني لا أستطيعُ أن أتّخذ القرارات وحدي. قل لي هل حياتُنا معاً، وعملنا مُجرّد مغامرة، سأكون موافقة على ذلك. قل لي إذا كان الأمران كلاهما دائمين. وسوف أكون موافقة أيضاً. لكنّنا لم نعُد نستطيع التصرّف كما لو كان العمل عابراً والحبّ دائماً، ولا بشكل معكوس، هل تفهمني؟

«كيف كان يُمكنني أن أفسّر له، يا كلوديا، أنني أجدُ مشكلته غير مفهومة بالنسبة لي؟ صدّقيني، جالساً هناك في لا كليمنس، يُشاهد الشباب وهُم يَعبرون راكبين الدراجات، ومُصغياً إلى الضحكات والهمسات التي تُحيط بنا، مع أجراس الكاتدرائية التي تُدوّي موسيقاها، صدّقيني، يا أختي، هربتُ من كلّ ذاك العالم المُطوّق، أغمضتُ عيني وغرقتُ في ذاتي، وصقلت في ظلمتي الخاصّة ذكاءً سريّاً لشخصيتي، دققت كلّ خيوط حساسيّتي لكي ترجّها أدنى حركة للروح، ومددت كلّ إدراكي الحسّي، كلّ تكهّناتي، كلّ اشتباك الحاضر مثل قوس، لكي أرمي الآتي وأكشفه، جارحاً له. هذا السهم انطلق مسدّداً ولم يكن ثمّة هدف، يا كلوديا، لم يكن ثمّة شيء إلى الأمام، وكلّ ذلك البناء الداخليّ والمؤلم - كنت أشعر بيدي باردتين بسبب الجهد- كان ينهارُ مثل مدينة من الرمال أمام الزحف الأوّل من الأمواج. لكن لا لكي تُفقَدَ بل لكي تعود إلى مُحيط ما يسمّونه بالذاكرة. إلى الطفولة، إلى الألعاب، إلى شاطئنا، إلى فرَح ودفء كان كلُّ شيء آخر يُحاول فقط محاكاته، وتمديده، وخلطه بمشاريع مستقبليّة

وإنتاجه مع مفاجآت الحاضر. أجل، قلت له إنه على أحسن حال. إننا سنبحث عن شقة أكبر. إن كلير قريباً سيكون لها مولود.»

هي نفسها أرسلت لي رسالة بذلك الخط الذي رأيته فقط على البطاقة البريدية لمونترو. «أنا أعرف مكانتك لدى خوان لويس، وكيف كبرتما معاً وكلّ الأشياء الأخرى. أتوق للتعامل معك وأعلم أننا سنكون صديقتين جيّدتين. صدّقيني أنني أعرفك. خوان لويس يتحدّث كثيراً عنك حتى بدأت أشعرُ أحياناً بالغيرة. أتمنى أن تستطيعي المجيء لزيارتنا يوماً ما. فقد حصلَ خوان لويس على عمل جيّد جداً والجميع يُحبّه. جنيف صغيرة، لكنّها رائعة. لقد ألفنا المدينة وأحببناها لأسباب يُمكنك تخمينها وهُنا سنصنعُ حياتنا. ما زلت بعدُ قادرة على العمل لعدة أشهر؛ أنا فقط في الشهر الثاني من الحمل. أختك، كلير.»

ومن الغلاف سقطت الصورة الجديدة. لقد غدوت سمينة وتحذرني على خلفيّة الصورة «ذائبة جداً، يا أختي.» وصرتَ أصلع، تماماً مثل أبي. وهي جميلة جداً، جدّ بوتيتشيلية، بشعرها الأشقر الطويل والبيريه الأنيق جداً. هل غدوتَ مجنوناً، يا خوان لويس؟ كنتَ شابّاً وسيماً عندما غادرتَ المكسيك. أنظر إليك. هل رأيتَ نفسك؟ اعتن بنظامك الغذائيّ. عمرك فقط سبعة وعشرون عاماً وتبدو في الأربعين. وماذا تقرأ، يا خوان لويس، ما الذي يَشغلك؟ الكلمات المتقاطعة؟ لا يُمكنك أن تخون ذاتك، من فضلك، أنت تعلم أنني أعتمدُ عليك، وأنك تنمو معي. لا يُمكنك أن تبقى في الخلف. كنتَ قد وعدتني أنّك ستواصلُ الدراسة هناك. قلت ذلك لأبي. العمل الروتيني يُتعبك. أنت لا تريد أن تصل إلى شقتك وتقرأ الجريدة وتخلع حذاءك. أليس كذلك؟ أنت لا تقول ذلك، ولكني أعلم أن ذلك صحيح. لا تخرّب نفسك، من فضلك. لقد ظللتُ وفيّة. وسأحفظ طفولتنا حيّة متوهّجة. لا يهمّني أن تكون أنت بعيداً. ولكن يجب علينا أن نبقى مُتّحدين حول الأهمّ. لا نستطيعُ أن نتنازل عن أيّ شيء لمن يطلب منّا أن نكون شيئاً آخر، أتذكر؟ خارج الحبّ والعبقرية والشباب والصمت. إنهم يُريدون أن يُشوّهوننا، أن يجعلونا مثلهم. هُم لا يتسامحون معنا. أنت لا تُصلح، يا خوان لويس، أتوسّل إليك، لا تنس ما قلته لي في ذلك المساء بمقهى ماسكارونيس. بمجرّد أن تخطو الخطوة الأولى في ذلك الاتجاه، كلّ شيء يغدو ضائعاً؛ ليس ثمة عودة. كان

يجب عليّ أن أكشف رسالتك إلى والدينا. أمّي صار حالها سيئاً للغاية. الضغط. هي في قسم أمراض القلب. آمُل ألاّ آتيها بأخبار سيّئة في المرّة المُقبلة. أنا أفكّر فيك، وأتذكّرك، وأعلم أنك لن تُخيّب رجائي.

وصلت رسالتان. أوّلاً تلك التي بعثتها إليّ لتقول لي إن كلير قد أجهضت. وبعد ذلك تلك التي قمتَ بإرسالها إلى أمّي، مُعلناً أنك ستتزوج كلير في غضون شهر. كنتَ تأمُل أن نحضر جميعاً لحفل الزفاف. سألتُ أمّي أن تسمح لي بالحفاظ على رسالتها مع رسائلي. وضعتُها جانباً ودرستُ خطّك لمعرفة ما إذا كانت الرسالتان مكتوبتين من قبل الشخص ذاته.

كان قراراً سريعاً، يا كلوديا. قلتُ له إنه كان من السابق لأوانه. «نحن شباب، ولنا الحقّ في أن نعيش بدون مسؤوليات لبعض الوقت، قالت كلير إنها كانت على أحسن حال. لا أعرف ما إذا كانت قد فهمت كلّ ما قلته لها. ولكن أنتَ فهمت، أليس كذلك؟»

«أحب هذه الفتاة، أعرف ذلك. لقد كانت معي طيّبة ومُتفهّمة وأحياناً جعلتها تكابد. أنتم لن تخجلوا من كوني أرغبُ في مُكافأتها. والدها أرمل. هو مهندس ويعيش في نيوشاتل. إنه موافق وسيأتي إلى العرس. حبذا لو تستطيعون مرافقتنا أنتِ ووالدي وكلوديا. عندما تتعرّفين على كلير ستحبّينها بنفس القدر الذي أحببتُها أنا، يا أمّي».

ثلاثة أسابيع بعد ذلك انتحرَت كلير. اتّصلَ بنا هاتفياً أحد زملائك في العمل. وقال إنّها في مساء يوم ما طلبت الإذن بمُغادرة المكتب. كانت تحسّ أن رأسها يُؤلمها. دخلتُ إلى قاعة سينما في وقت مُبكر وأنت بحثتَ عنها في تلك الليلة، كما هو الحال دوماً، في الشقة، انتظرتُها وبعدئذ ألقيتَ بنفسك في المدينة، لكنك لم تتمكّن من العثور عليها. كانت ميتة في قاعة السينما، كانت قد أخذت أقراصاً منوّمة قبل الدخول وجلست وحيدة في الصفّ الأمامي، حيث لا يُمكن لأحد أن يُزعجها. هاتفتَ نيوشاتل، غدتَ إلى جوب الشوارع، والمطاعم وجلستَ في لا كليمنس حتى أغلقت. وفي اليوم التالي فقط تمّ الاتصال بك من مُستودع الأموات فذهبتَ لرؤيتها. قال لنا صديقك إنّنا يجب أن نذهب إليك، لنجبرك على العودة إلى المكسيك: كنتَ مُصاباً

بلوثة جنون من الألم. أنا كاشفت والدينا بالحقيقة. وأطلَعْتهم على رسالتك الأخيرة. بقيا صامتين وبعدها قال أبي إنه لن يقبلك بعد اليوم في البيت. صرخ أنك صرتَ مُجرماً.

أنتهي من القهوة، يُشير موظف إلى حيث أنا جالسة. الرجل طويل القامة صاحب طيتي المعطف المرفوعتين، يتثبّت ويسيرُ نحوي. إنها المرّة الأولى التي أرى فيها ذلك الوجه الأسمر، ذا العينين الزرقاوين والشعر الأبيض. يستأذنني في الجلوس ويسألني إن كنتُ أنا أختك. أقول له نعم. يقول إنه هو والد كلير. لا يُصافحني. أسأله ما إذا كان يرغب في تناوُل قهوة. يهزُّ رأسه بالنفي ويسحبُ علبة سجائر من جيب المعطف. يقدّم لي سيجارة. أقول له إني لا أدخّن. يُحاول أن يبتسم وأرتدي أنا النظارات الداكنة. يَضع مرّة أخرى يدَه في الجيب ويسحبُ ورقة. ويضعُها مطوية على الطاولة.

«لقد أحضرتُ لك هذه الرسالة.

أحاولُ أن استجوبه بحاجبيّ المرفوعين.

- عليها توقيعه. هي مُوجّهة إلى ابنتي. كانت على وسادة خوان لويس صباح اليوم الذي عُثر عليه ميتاً في الشقة.

- آه، نعم. كنتُ أتساءل ما الذي حدَث للرسالة. بحثتُ عنها في كلِّ مكان.

- أجل، لقد فكّرتُ أنك قد ترغبين في الاحتفاظ بها. - الآن يبتسم وكأنه كان يعرفني-. أنت جدّ متهكّمة. لا تقلقي. لأجل ماذا؟ لا شيء الآن يُمكن تداركه.

يقف دون أن يودّع. تنظر إليّ العيون الزرقاء بحزن وشفقة. أحاولُ أن أبتسم وآخذ الرسالة. مُكبر الصوت:

-... المغادرة للرحلة رقم ٧٠٧ ... باريس، غندر، نيويورك ومكسيكو ... المطلوب من المسافرين التوجّه إلى البوابة رقم ٥.

أجمعُ أمتعتي أسوّي البيريه وأنحدر باتجاه بوابة الخروج. أحملُ الحقيبة وعلبة

الأغراض في يدي وبطاقة المرور بين أصابعي، لكنني تمكّنتُ ما بين الباب ودرج الطائرة من تمزيق الرسالة وإلقاء مزقها للرّيح الباردة وللضباب الذي ربّما يَحملها إلى البُحيرة حيث كنتَ تختفي، يا خوان لويس، بحثاً عن سرابٍ ما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الليل مستلقيا على ظهره

خوليو كورتاثار

وكانوا يخرجون في أوقاتٍ معينةٍ لمطاردة الأعداء.

كانوا يسمونها الحرب المزهرة.

في منتصَف الدهليز الطويل للفندق، فكّرَ أنه كانَ يجبُ أن يكون الوقتُ متأخرا وسارع بالخروج إلى الشارع وسحبِ دراجته النارية من الزاوية التي يسمح له البواب المجاور أن يحتفِظ بها. في متجر مجوهرات في الركن رأى أن الساعة كانت تشيرُ إلى التاسعة إلا عشر دقائق؛ كان سَيَصلُ في مُتَّسَع من الوقتِ إلى حيث كان ذاهباً. وكانت الشمس تتسللُ من بينِ المباني العالية لمركز المدينة، وكان هو -لأنه بالنسبة لذاته، ولكي يمضي في التفكير، ليسَ له اسم -ركب الآلة وهو يتلذذ بالنزهة. كانت الدراجة تصدر هديرها بين ساقيه، بينما كانت ريح باردة تجلد سرواله...

سمح بأن يتجاوز الوزارات (اللون الوردي والأبيض) وسلسلة المتاجر بواجهات العرض اللامعة في شارع سنطرال. كان يدخل الآن الجزء الأكثر إمتاعاً من الجولة، والنزهة الحقيقية: شارع طويل تضطَفُّ على جانبيه الأشجار، مع حركة مرور قليلة وفيلات واسعة تسمح للحدائق بأن تصِلَ حتى الأرصفة، بالكاد تُحَدُّ بسياجاتٍ خفيضةٍ. لربما كان إلى حد ما في سهوٍ، لكنَّهُ كانَ يمضي مسرعا على اليمين كما هو واجِبٌ، ترك لنفسه أن تنساق مع اللمعان، عن طريق التوتر الضئيل لذلك اليوم الذي بدأ للتو. لربما منعه استرخاؤهُ اللامتعمد من توقع الحادثة. عندما رأى المرأة التي تقف عند الزاوية وهي تلقي بنفسها مسرعة في الطريق رغم الإشارات الضوئية الخضراء، كان الأوانُ قد فاته لإيجاد حلول سهلة. فرمل بقدمه ويده، منحرفاً إلى اليسار. سمع صرخة المرأة، ومباشرة مع الصدمة فقد الرؤيةَ. كان الأمرُ مثلَ النوم بشكلٍ مباغتٍ.

استعاد فجأة وعيه بعد الإغماء. وكان هنالك أربعة أو خمسة شبان يسحبونه من تحت الدراجة النارية. كانَ يَحسُّ طعمَ الملح والدم، وكانت تؤلمُهُ إحدى ركبتيه، ولمّا

رفعوهُ صرخ، لأنه لم يكنْ يستطيع أن يتحمل الضغط على ذراعه اليمنى. الأصوات التي لم يكن يبدو أنها تنتمي إلى الوجوه المتدلية فوقه، كانت تُشجّعُهُ بدعاباتٍ وتأمينات. التخفيفُ الوحيد عن نفسِهِ كان سماعه تأكيداتٍ بأنه كان من حقه عبور الزاوية. سأل عن المرأة، وهو يحاولُ التحكم في الغثيان الذي كان يغالبُ حلقه. وبينما كانوا يحملونهُ مستلقياً على ظهره حتى صيدلية قريبة، عَلِمَ أن المُتسبِّبَةَ في الحادثة لم يصبها سوى بعضِ الخُدوش في ساقيها. «أنتَ بالكادِ لَمستَها، ولكنْ الضَّرْبَة جعلتها تقفز على الآلة جانباً ...»؛ آراء، ذكريات، على مهلٍ، أدخلُوهُ مستلقياً على قفاه، هكذا سيكونُ أفضل، وشخص ما ببدلةٍ واقيةٍ من الغبارِ وهوَ يُعطيه ليَشرب جرعةً أنعشَتْهُ في ظليلِ صيدليةِ حيٍّ صغيرةٍ.

وصلت سيارة إسعاف الشرطة بعد خمس دقائق، فحملوه على نقالة ناعمة حيث أمكنه أنْ يتمدّدَ على هواه. وبكل تبصُّرٍ، لكن وهو يعرفُ أنه كان تحت تأثير صدمة فظيعة، أعطى أوراقَ هويَّتِهِ للشُّرَطِيِّ الذي كانَ يُرافِقُه. الذراع لم تكن تؤلمه تقريباً. ومِن جرحٍ في حاجبِهِ كانَ الدَّمُ يقطرُ على كلِّ وجهه.

مرة أو مرتين لعقَ شفتيه لكي يشربه. كانَ يشعرُ بالارتياح، لقد كانت حادثَةً، حظّاً سيئاً؛ بضعةُ أسابيع من التوقف ولا شيء أكثر من ذلك. قال له الحارسُ أن الدراجة النارية لا تبدو جِدَّ مُدَمَّرَة. قال هو «هذا طبيعيٌّ». «مادمتُ قد تحمَّلْتُها فوقي...«ضحك الاثنان ثمَّ صافحه الحارس عندما وصلا إلى المستشفى وتمنى له حظا سعيدا. ها قد بدأ الغثيان يعودُ شيئًا فشيئًا؛ بينما كانوا يأخذونه على نقالة متحرِّكةٍ حتى أحدِ الأجنحة الواقعة في الخلف، وهم يمرون تحت الأشجار المليئة بالعصافير، أغلق عينيه وتمنى لو كان نائما أو مخدرًا بالكلوروفورم. لكنهم أبقوه لفترة طويلة في غرفة تعبقُ برائحة المستشفى، وهم يملؤون بطاقةً، وينزعون ملابسه ثمّ يلبسونه قميصا رمادياً خشناً. كانوا يحركون ذراعه بحَذَرٍ، دون أن تؤلِمَهُ. كانت الممرضات يمزحن طوال الوقت، وإذا لم يكن الأمرُ بسبب تقلصات المعدة فقد كان سيحسُّ بأنَّهُ على أحسنِ ما يرام، بلْ ويكادُ يكون سعيدا للغاية.

أخذوه إلى قاعة الفحص بالأشعة، وبعد عشرين دقيقة نقلوه إلى قاعة العمليات،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

واللوحةُ بعدُ لا تزال مبللة على صدره مثل شاهد قبرٍ أسودَ. اقترب منه شخص يلبس الأبيض، طويل القامة نحيفا، وأخذ ينظر إلى الصور بالأشعة السينية. يدا امرأة كانتا تجعلان رأسه في وضعٍ مُناسبٍ، شعرَ أنهم كانوا يمرّرُونَهُ منْ نقالةٍ إلى أخرى. اقترب منه الرجل اللابسُ الأبيضَ مرة أخرى، مبتسما، بشيءٍ يلتمِعُ في يده اليمنى. ربتَ على خدهِ وقامَ بإشارةٍ تجاهَ شخصٍ يقِفُ في الخلف.

كان غريبا كحلم لأنه كان مليئا بالروائح، وهو لم يكن يحلم أبدا بالروائح. أولا رائحة المستنقع، مادام على يسار الطريق كانت تبدأ البرك، والأهوارُ التي لا يعود منها أحد. لكن الرائحة تلاشَت، وبدلاً من ذلك جاء عبيرٌ مُرَكَّبٌ ومُغتِمٌ مثل الليل الذي كان يتحركُ فيه هارباً من الأزتيك. وكان كل شيء طبيعيّاً جدّا، اضطر إلى الهروبِ من الأزتيك الذين كانوا يصطادون البشر، وكانت فرصته الوحيدة في الاختباء بالمنطقة الأكثر كثافة في الغابة، مع الحرص على عدم الابتعاد عن الطريق الضيق الذي لا يعرفهُ أحدٌ غيرهم، الغرباء.

أكثر ما كان يُعذّبُهُ هو الرائحة، كما لو أنه بعد لا يزال في القبول المطلق للحلم شيءٌ سينكشفُ ضدّ ذاك الذي لم يكن معتادا، والذي حتى ذلك الحين لم يكن قد شارك في اللعبة. «تُشتَمُّ رائحةُ الخَزبِ»، فكرَ، وهو يلمسُ غريزيّاً الخنجرَ الحجريَّ الذي يجتازُ حزامَهُ منَ الصُّوفِ المَنسوج. صوت لامُتوقَّعٌ جعله يجثم ويبقى بلا حراك وهو يرتجفُ. أن يُحِسَّ الخَوفَ لم يكن غريباً، في أحلامه. كان الخوف وفيرا بغزارة. انتظر، وهو متخفٍ بأغصان شجيرة والليلة عديمة النجوم. وجدٌ بعيدٍ، ربما على الجانب الآخر من البحيرة الكبرى، كان يجب أن تكون مشتعلة نيرانُ احتراقِ المخيّماتِ في العراء. وهجٌ ضارب الى الحُمرةِ كانَ يُخَضِّبُ ذلك الجُزءَ من السماء. لمْ يتكرّرِ الصوتُ. لقد كان مثل غصنٍ مكسورٍ. ربما كانَ حيوانا هاربا مثله مثل رائحة الحرب. اعتدلَ في مهلٍ، وهو يستنشقُ الهواء. لم يكنْ يُسمَعُ أيُّ شيءٍ، لكن الخوف كان لا يزال هنالك مثل الرائحةِ، ذلك البخورُ العذبُ جدّاً للحرب المزهرة. كان يجبُ الفواصلةُ حتى بلوغِ قلبِ الغابةِ وتجنب المستنقعات. كان يتلمس طريقه جاثماً في كل لحظة لكي يلمِسَ الأرض الأكثر قسوة من الطريق، مُتقدّماً بضعَ خطواتٍ. كانَ يتمنى لو يكونُ قادرا على أن يركض، لكن المستنقعات كانت تخفق بجانبه. على

الطريقِ المعتمِ بحث عن الوجهة. حينئذ أحسّ بنفخةٍ من الرائحة التي كانت أشدّ ما كان يخافه، وقفز بشكلٍ يائسٍ إلى الأمام.

- «سوف تسقطُ من السرير». قال المريض في السرير المجاور: لا تقفزْ كثيراً، أيُّها الصديق.

فتح عينيه وكان الوقت متأخرا، مع شمس قد انحدرث في النوافذ الشاسعة للغرفة المديدة. وبينما كان يحاول أن يبتسم لجاره، ابتعدَ جسدياً تقريبا من للرؤية الأخيرة للكابوس. كانت ذراعهُ، في جبيرة من الجِصّ، معلقة على جهاز بمثاقيل وبكراتٍ. شعر بِعَطَشٍ، كما لو كان يركضُ كيلومترات، لكنهم لم يكونوا راغبين في إعطائه كثيرا من الماء، بالكادِ لتبليلِ شفتيه وتمكينه من جُرعةٍ.

كانت الحمى تغالبه ببطء وكان بإمكانه أن ينام من جديد، لكنه كان يستمتع بلذة البقاء مستيقظا، مغمض العينين، وهو يستمعُ إلى حوار المرضى الآخرين، مجيبا بين الفينة والأخرى عن سؤالٍ ما. ورأى عربة صغيرة بيضاء تصل وقد تم وضعها بجوار سريره، وفركت ممرضة شقراء الجزء الأمامي من فخذه بالكحول، وغرزت إبرة سميكة موصولة بأنبوب يصعد حتى زجاجة مليئة بسائل متلألئ. وجاء طبيب شاب بجهاز من معدنٍ وجلدٍ ضبطه على ذراعه السليم للتحقق من شيء ما. كان الليل ينزلُ، وكانت الحمى تسحبه بهدوء إلى حالة كانت فيها الأشياء تتخذ أهمية مثلما عبر منظار المسرح، كانت حقيقية وحلوة وفي الآن نفسه كريهة شيئا ما. مثل أن تشاهد فيلما مُملاً وتُفكّرَ أنّ الأمور في الشارع رغم ذلك هي أسوأ، وتواصلُ البقاء.

أُحضِرَث سلطانية من مرق ذهبي رائع يعبق برائحة الكراث والكرفس والبقدونس. قطعة صغيرة من الخبز، أشهى من مأدبة بكاملها، مضَتْ تتفتت شيئا فشيئا. لم تعدِ الذراع تؤلمهُ على الإطلاق، فقط في الحاجب، حيث تمّ غرزُه، كانَتْ ترتجفُ أحيانا وخزةٌ حارّة وسريعة. ولمّا تحوّلت النوافذ أمامه إلى بقع زرقاء داكنة، فكّرَ أنه لن يكون صعباً عليهِ أن ينام. كان غير مستريح قليلا، على الظهر، لكنه عندما مرَّرَ لسانه على شفتيه الجافتين والساخنتين تذوق طعم المرق، وتنهدَ من السعادة، واستسلم.

في البداية كان الأمر ملتبسا، جذب نحو الذات لجميع الأحاسيس الواهنة أو

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

المشوّشة خلال لحظة. كان يُدرك أنّهُ يركضُ في الظلام، رغم أن السماء التي في الأعلى تجتازُها رؤوس أشجار كانت أقل سواداً مما تبقى. فكّرَ «الطريق». «قد غادرت الطريق.» كانت قدماه تغرقان في حشيئةٍ من الأوراق والطين، ولم يعد يستطع أن القيام بخطوة دون أن تجلدَ أغصانُ الشجيرات جذعه ورجليه. لاهثاً، إذ علِمَ أنه محاصرٌ رغم الظلام والصمت، انحنى للاستماع. لربما كانتِ الطريق قريبةً، مع الأضواء الأولى للنهار كان سيمضي لرؤيتها مرة أخرى. لا شيء يمكن أن يساعده الآن على العثور عليها. اليد التي دون إدراك منه كانت تمسكُ بقبضة الخنجر، ارتقى مثل عقرب في المستنقعات حتّى عنقه، حيث تتدلى التميمة الواقية. وإذ كان بالكاد يحركُ شفتيه وهو يُهمهمُ بصلاة الذرة التي تجلبُ الأقمارَ السعيدة، وبالابتهال العالي جداً، لواهبة الخيرات الأجنبية. لكنه كان يشعر في الوقت ذاتِه أن كاحليه كانا يغرقان ببطء في الوحل، وكان الانتظار في عتمة غابة السنديان المجهولة يتحولُ غير قابلٍ للاحتمال. بدأت الحرب المزهرة بالقمر وقد انقضى منها الآن ثلاثة أيام وثلاث ليال. إذا تمكن من الالتجاء إلى أعماق الغاب، تاركاً الطريق فيما وراء منطقة المستنقعات، ربما لن يتعقبَ المحاربون أثره. فكر في عدد الأسرى الذين سوف يكونون قد وقعوا بين أيديهم. لكن العدد لا يهُمُّ بل الوقت المقدس. سوف يستمرُّ القنص حتى يعطيَ الكهنة إشارة العودة. كل شيء كانت له أرقامه ونهايته، وهو كان داخل الزمن المقدس، على الجهة الأخرى المقابلة للقناصة.

سمع الصرخات واستقام بقفزةٍ، والخنجر في يده. كما لو أنّ السماء قد اشتعلت في الأفق، رأى مشاعلَ تتحركُ بين الأغصان، جدّ قريبةٍ. كانت رائحة الحرب لا تُطاقُ، ولمّا وثب العدوُّ الأولُ بتلابيبهِ، كادَ يشعرُ بالمتعة وهو يغرسُ النصل الحجري ملء صدره. كانت الأضواء والصيحات المبتهجة تحيط به. تمكن من قطع الهواء مرة أو مرتين، وحينها أمسك به حبلٌ من الخلف.

-إنها الحمى، قال المستلقي على السرير الذي بجواره. أنا نفسي كان يحدثُ معي الشيءُ ذاته عندما أجريت لي عملية جراحية على المعي الاثني عشري. خذ ماء وسترى كيف أنك ستنام جيدا.

CamScanner الممسوحة ضوئيا ب

بجانب الليلة التي عاد منها، بدا لهُ الدِّفءُ الدافئ للغرفة لذيذا. كان المصباح البنفسجي يَسهرُ في أعلى الجدار الخلفي مثل عينٍ تحرسهُ. كان يُسمَعُ سعالٌ، وتنفُّس قويٌ، وأحيانا حوار بصوت منخفض. كل شيء كان لطيفاً وآمناً، دون مُضايَقةٍ، ودون ... لكنه لم يكن يرغبُ في مواصلةِ التفكير في الكابوس. كان هناك الكثير من الأشياء التي يمكنُ أن ينشغلَ بها. شرعَ في النَّظرِ إلى الجص على ذراعه، البكرات التي تسندهُ بشكلٍ مُريحٍ في الهواء. كانوا قد وضعوا له قنينة مياه معدنية على طاولة السرير. شَرِبَ من عنق الزجاجة، بتلذذٍ. كان يميِّزُ الآن بين الأشكال في الغرفة، الأسِرَّةَ الثلاثين، والخزانات بواجهاتها الزُّجاجية.

لا يجب أن يكون محموماً بهذا الشكل، كان يُحِسُّ وجهه منتعشاً. وكان حاجبه بالكاد يؤلمهُ، مثل ذكرى. ورأى نفسه مرة أخرى يغادر الفندق، ويُخرجُ الدراجة النارية. من كان يظن أن الأمور ستنتهي هكذا؟ كان يُحاول أن يثَبِّتَ لحظة الحادثة، وغضِبَ عندما لاحظ أنَّ هناك ما يشبهُ الثُّقبَ، فراغٌ لم يكن يستطيع ملأه. ما بين الصدمة واللحظة التي رفعوه فيها عن الأرض، إغماءٌ أو أيّ عارضٍ آخر لم يكُن يسمح له برؤية أيّ شيء. وفي الآن نفسه كان لديه شعور بأن ذلك الثقب، ذلك اللاشيء، قد استدامَ أبدية. لا، ليس حتى زمناً، بل كما لو في ذلك الثقبِ قد مَرَّ عبر شيء ما أو قطعَ مسافات هائلة. الصدمة، الضربة القاسية ضد الرصيف. في كل الأحوال، لمَّا خرج من البئر السوداء، كان يكاد يشعر بارتياح بينما الرجال يرفعونه عن الأرض. بألم الذِّراع المكسورة، والدم في الحاجب المنفلق، والكدمة في الركبة. مع كل ذلك، ارتياح بالعودة إلى النهار والشعور الذاتي بأنك مساند وتتلقى المساعدة. وكان الأمر غريبًا. في وقت ما سوف يسأل الطبيب المداوم. الآن عاد النومُ يتمكن منه، يُلقيه على مهلٍ إلى الأسفل. كانت الوسادة ناعمة جداً، وفي حنجرته المحمومة برودة الماء المعدني. ربما يتمكنُ فعلا من أن يستريح، بعيدا عن الكوابيس اللعينة. وكان الضوء البنفسجي للمصباح في الأعلى يتلاشى تدريجيًا.

بِمَا أنَّهُ كان نائما على ظهره، لم يستغرب الوضع الذي وجد نفسه عليه مرة أخرى، ولكن بدل رائحة الرطوبة، كان حجر يرشخ نزازاتٍ، قد سدَّ حنجرته وأجبرَهُ على الاستيعاب. غير مُجدٍ فتح العينينِ والنظر في كل الاتجاهات. كان يلفُّهُ الظلام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطلق. أراد أن يعتدل في وضعه وشعر بحبال معصميه وكاحليه. كان مشدوداً إلى الأرض بأوتاد، على أرضية من ألواحٍ حجرية مُثلَجةٍ ورطبة. كان البرد يغلب ظهره العاري وساقيه. بفكهِ الأسفلِ حاول بشكلٍ أخرق أن يلمسَ تميمته، وعرف أنهم قد اقتلعوها منه. كان الآن تائها، ليس بإمكانِ أي ابتهالٍ أن ينقذه من النهاية. بعيدا، كما لو كان يتسبب بين أحجار الزنزانة، سمع طبول الاحتفال. كانوا قد أحضروه إلى معبد الهنود الحمر، وكان في الزنزانات السفلية المظلمة لسجن المعبد في انتظار دوره.

سمع صراخا، صرخة مبحوحة كانت ترتدُ عبر الجدران. صرخةٌ أخرى، تنتهي بأنين. قد كان هو صارخا في الظلمات، صارخا لأنه كان لا يزال حيا، كلُ جسده كان يدفع جسده عن نفسه بالصرخة مما كان سيأتي من النهاية المحتمة. فكر في رفاقه الذين يملؤون الدهاليز الأخرى، وفي أولئك الذين كانوا يصعدون سُلَمَ التضحية فعلا. صرخ من جديدٍ، في اختناق، كان غير قادر على فتح فمه تقريبا، وكان فكاه متشنجين، وفي الآن ذاته كما لو أنهما من المطاط، سينفتحان ببطء، وبجهد لا نهائيّ. صرير مرتاج هزّه مثل سوط. تشنج، وهو يتلوى، قاتل لكي يتخلص من الحبال التي كانت تنغرش عميقا في جسده. ذراعه اليمنى، الأقوى، كان يسحبها إلى أن أصبح الألم لا يطاق وكان لزاما عليه أن يستسلم. رأى الباب المزدوج ينفتح، ووصلته رائحة المشاعل قبل الضوء. بالكاد يتزنرون بمآزر الحفل، اقترب منه مساعدو الكاهن وهم ينظرون إليه بازدراء. كانت الأضواء تنعكس في جذوعهم المتعرقة، في الشعر الأسود المليء بالريش. لانت الحبال، وبدلا منها أمسكت به أيادٍ ملتهبة، وقاسية مثل البرونز. أحسّ نفسه مرفوعا، دائما مستلقيا على ظهره، مسحوبا من قبل السدنة الأربعة الذين كانوا يحملونه عبر الممر. حاملو المشاعل كانوا يسيرون إلى الأمام، وهم يضيئون بشكل غامض الممر ذا الجدران المبللة والسقف الخفيض جدا حدّ أن السدنة كانوا يضطرون إلى حني رؤوسهم. الآن كانوا يأخذونه، كانوا يأخذونه، كانت النهاية. مستلقيا على ظهره، على مسافة متر من السقف الصخري الحي الذي كان يضاء بين الفينة والأخرى بانعكاس المشعل. حينما، بدل السقف ولدت النجوم وعلا أمامه السلم الخارجي المشتعلُ بالصرخات والرقصات، فستكون النهاية. لم يكن الممر ينتهي أبدا، لكنه سوف ينتهي، فجأة سيشمُ رائحة الهواء الطلق المليء بالنجوم، لكن ليس

Telegram:@mbooks90

بعد، كانوا يسيرون وهم يحملونه إلى ما لا نهاية في الظليل الأحمر، وهم يسحبونه بفظاظة، وهو لا يرغبُ في ذلك، لكن كيف يوقف ذلك إذا كانوا قد مزقوا التميمة التي كانت جوهر قلبه الحقيقي، ومركز الحياة بالنسبة له.

خرج بوثبة إلى ليلة المستشفى، إلى السماء المنبسطة العذبة والمرتفعة، إلى الظل الناعم الذي كان يحيط به. فكَّر أنه كان يجب عليه أن يصرخ، لكن مجاوريه كانوا ينامون في هدوء. على مائدة الليل، كانت زجاجة الماء تحتوي على شيء من فقاعة، من صورة شبه شفافة ضد الظل الأزرق للنوافذ. لهث بحثا عن التخفيف على الرئتين، نسيان تلك الصور التي كانت لا تزال تعلق بجفنيه. وكان في كل مرة يغلق عينيه يراها للتو تتشكل، وكان يعتدل مرعوبا لكنه يستمتع في الآن نفسه بالمعرفة بأنه كان مستيقظا الآن، وأن اليقظة كانت تحترسه، وأنه قريبا سيطلع الفجر، مع النوم العميق الجيد الذي لذلك الوقت، دونما صور، ودونما أي شيء ... كان من الصعب عليه أن يُبقي عينيه مفتوحتين، كان النعاس أقوى منه. بذل جهدًا أخيرًا، بيده السليمة رسم حركة تجاه زجاجة الماء. لكنه لم يتوصل إلى الإمساك بها، انغلقت أصابعه مرة أخرى على فراغ أسود، وكان الممرُّ لا نهائيا، وصخرة بعد صخرة، بمشاعل ساطعة مباغتة، وهو مستلقٍ على ظهره يئن في انطفاء لأن السقف كان على وشك الانتهاء، كان يرتفع، وينفتح مثل فم الظلام، والسدنة يستوون، ومن العلو سقط هلال على وجهه، حيث العينان لا يرغبان في رؤيته، ينغلقان وينفتحان في يأس وهما يرغبان في العبور إلى الجانب الآخر، إعادة اكتشاف السماء المنبسطة التي تحمي هذه الغرفة. وفي كل مرة تُفتح فيها العينان كان الليل والقمر بينما هم يصعدون بِهِ الشلم، والآن يتدلى برأسه نحو الأسفل، وفي الأعلى كانت النيران، والأعمدة الحمراء من أحمر معطر، ودفعة واحدة رأى الحجر الأحمر، لامعاً من دم نازف، والذهاب والإياب لأقدام للفضَحّى بِهِ الذي كانوا يسحبونه لإلقائه أسفلَ السّلالم الشمالية. بأملٍ أخيرٍ ضيَّقَ جفنيه، وهو يئنُّ ليستيقظ. خلال ثانية واحدة اعتقد أنه سيحققُ ذلك، لأنه كانَ مرَّةً أخرى ثابتاً في السرير، بمأمن من التأرجح ورأسه في الأسفل. لكنه كان يشمُّ رائحة الموت ولمّا فتح عينيه رأى الشّكلَ الدّمَويّ للكاهن المكلّف بتقديم القربان قادمًا نحوه بالسكين الحجري في يده. تمكن من إغلاق جفنيه مرة أخرى، رغم أنه كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن يعرف أنه لن يستيقظ، أنه كان مستيقظًا، وأن الحلم الرائع كان آخر، سخيفا مثل كل الأحلام. حلمٌ كان يسيرُ خلاله عبر طرق غريبة لمدينة مدهشة، بأضواء خضراء وحمراء تشتعلُ دون جذوة أو دخان، وبحشرة معدنية ضخمة تئزُّ تحت رجليه. في الكذبة اللانهائية لذلك الحلم، كانوا قد رفعوه أيضاً عن الأرض، واقترب منه أيضا أحدهم بسكين في يده، وهو يتَمدَّدُ مستلقياً على ظهره، على ظهره وهو بين الحرائق وعيناه مغلقتان.

في رحلة شهر العسل
خابيير ماريّاس(4)

أحسّت زوجتي أنها مُتعبة، فغذنا على عجل إلى غرفة الفندق، حيث رقدَت وهي ترتعدُ في قشعريرة، كان يعتريها قليلٌ من الغثيان ومن الحمّى. لم نرغب في استدعاء طبيب للتو حتى نرى إن كانت ستجتاز الحالة بسرعة، ولأننا كنّا في رحلتنا لقضاء شهر العسل، وفي مثل تلك الرحلة لا يُستحبّ إقحام الغرباء حتى وإن كان من أجل فحص طبّي. لابدّ أنه دوار خفيف، مَغص، أو أيّ شيء آخر. كنّا في إشبيلية، في فندق يبقى بعيداً عن حركة المرور، فقد كان ثمّة ساحة تفصله عن الشارع. وبينما كانت زوجتي تنام (يبدو أنها كانت نائمة بعدما وضعتُها على الفراش وغطّيتها)، قرّرتُ أن أخلد للصمت، وأفضل طريقة لكي أتمكّن من ذلك، وحتى لا أجد نفسي مستدرجاً إلى إحداث جلبة أو إلى التحدّث إليها بسبب السأم، كان أن أتلهّى بأن أطلّ من الشرفة وأنظر إلى الناس، إلى الإشبيليّين، كيف يمشون وكيف يلبسون، كيف يتحدّثون، وإن كانت لا تُسمَعُ سوى وشوشات بسبب المسافة البعيدة نسبيّاً عن الشارع وعن حركة المرور. كنتُ أنظر دون أن أرى، مثلما ينظرُ من يأتي إلى حفل يعرف أنّ الشخص الوحيد الذي يهمّه لن يكون هناك لأنّه بقيَ في البيت مع زوجه. ذلك الشخص الوحيد كان يوجد معي، خلف ظهري، وتحت عناية الزوج. كنتُ أنظر إلى الخارج وأفكّر في الداخل، لكنّي فجأة أفردت شخصاً ما. أفردته لأن هذه الشخصية، بخلاف الباقي الذين كانوا يمرّون في لحظة ما ثم يختفون، بقيَت ثابتة في مكانها. كانت امرأة في الثلاثينيات من العُمر كما تبدو من بعيد، تلبسُ قميصاً أزرق بدون أكمام تقريباً، وتنورة بيضاء وحذاءً بكعب عالٍ أبيض أيضاً. كانت تنتظر، وكانت وقفتها تشي بانتظار لا لبس فيه، لأنها كانت بين الفينة والأخرى تخطو خطوتين أو ثلاثاً إلى اليمين أو إلى اليسار، وفي الخطوة الأخيرة تسحب قليلاً الكعب الحادّ للحذاء لإحدى قدميها أو للقدم الأخرى، بحركة أناة مكتومة. كانت تحمل على ذراعها حقيبة يد كبيرة مُعلّقة، مثل تلك التي كانت تحملها الأمّهات، أمّي، أثناء طفولتي، حقيبة يد كبيرة سوداء مُعلّقة على ذراعها بشكل قديم، لم تكُن تتدلّى من الكتف كما يتمّ حملها الآن. كان لديها ساقان متينتان تنغرسان بشكل قويّ في

الأرض كلّما عادتا للتوقّف ثانية في النقطة التي تمّ اختيارها للانتظار بعد التحرّك الأدنى لخطوتين أو ثلاث خطوات والكعب المسحوب للخطوة الأخيرة، كانتا جدّ متينتين حدّ أنهما تلغيان أو تستوعبان ذينك الكعبين، كانتا هُما اللتين تنغرسان في حجر التبليط مثلما ينغرش سكّين في خشب مُبلّل. أحياناً كانت تثني إحداهما لكي تنظر إلى الخلف، وتُسرّح التنورة كما لو كانت تخاف من أن تُشوه إحدى الثنيات مؤخّرتها أو لربّما كانت تُسوّي سروالها الداخليّ المتمرّد من خلال الثوب الذي كان يُغطّيه.

كان ظلامُ الليل قد بدأ يهبط، وقد جعلني الفقدان التدريجيّ للضوء أراها أكثر فأكثر أشدّ وحدة، وأشدّ انعزالاً ومحكوماً عليها بالانتظار سدى. مُوعدها سوف لن يأتي. كانت لا تزال في مُنتصف الشارع، ولم تكن تستندُ إلى الجدار مثلما تعوّدَ أن يفعل أولئك الذين ينتظرون، حتى لا يُعرقلوا مرور الذين لا ينتظرون ويعبرون، ولذلك كانت تجدُ مشاكل في تجنّب العابرين، أحدهم قال لها شيئاً فردّت عليه بحنق وهدّدته بحقيبتها اليدويّة الكبيرة.

فجأة رفعت بصرَها باتجاه الطابق الثالث الذي كنتُ أتواجد به، وبدا لي أنها كانت تركّز عينيها عليّ للوهلة الأولى، تفحّصتني كما لو كانت حسيرةَ البصر أو تضع عدسات وسخة، كانت تغمز قليلاً بعينيها لترى بشكل أفضل، وبدا لي أنها كانت تنظر إليّ أنا بالتحديد، لكني لا أعرف أحداً في إشبيلية، وفضلاً عن ذلك، كانت هذه المرّة الأولى التي أحلّ فيها بإشبيلية، في رحلتي لشهر العسل مع زوجتي الحديثة جدّاً بالزواج، والتي توجد مريضة خلفي. أتمنّى ألاّ يكون ثمّة أيّ شيء. سمعتُ همسة صادرة من السرير، لكن زوجتي لم تكن تحرّك رأسها لأنّ الأنين كان يصدرُ من النوم، يتعلّم المرء كيف يُميّز مُباشرةً الصوتَ النائم لذاك الذي ينام معه. المرأة الآن تقدّمت خطوات باتجاهي، تعبُرُ الشارع مُتفادية السيارات دون أن تبحث عن أضواء إشارة المرور، كما لو أنها تريدُ أن تدنوَ سريعاً لتتأكّد، ولكي تراني بشكل أفضل وأنا أطِلُّ من شرفتي. ومع ذلك كانت تمشي بصعوبة وببطء، كما لو أنها ليست مُتعودة على الكعوب العالية، أو أن ساقيها لم تُخلقا لأجلها، أو أن حقيبتها اليدويّة كانت ستُفقدها توازنَها، أو أنها كانت تحسّ بدوار. كانت تسيرُ مثلما مشت زوجتي حينما أحسّت أنها

مُتعبة لمّا دخلت الغرفة، كنت قد ساعدتها على خلع ملابسها وعلى أن تلجَ السرير، وغطيتها. كانت امرأةُ الشارع قد عبرَت للتو، هي الآن أقرب، لكنها لا تزال على مسافة بعيدة. تفصلها عن الفندق تلك الساحة الواسعة الذي تُبعده عن حركة المرور. كانت لا تزال ببصرها المرتفع تنظرُ نحوي، أو نحو ارتفاعي، ارتفاع البناية التي كنتُ أتواجد فيها. وحينئذ قامت بحركة من ذراعها، حركة لم تكن لا للتحية ولا للتقرّب، أقصدُ التقرّب من غريب ما، بل للتملّك والتعرّف، كما لو كنت أنا الشخص الذي كانت تنتظره، وأنّ موعدها قد كان معي. كانت بحركة ذراعها تلك المتوّجة بالدوران السريع للأصابع كما لو أنها ترغب في أن تُمسك بي وتقول: «أنت تعال إلى هنا» أو «أنت ملك لي». وصرختُ في الآن نفسه بشيء لم أستطع أن أتبيّنه، ومن خلال حركة الشفتين فهمتُ فقط الكلمة الأولى، والتي كانت هي: «ياه!»، وقد قيلت بتذمّر مثل ما تبقّى من الجملة التي ما كانت لتصِلَني واضحة. واصلَت تقدّمها، والآن قد لمست تنورتها من الخلف بدافع أقوى، لأنّه بدا لها أنّ الشخص الذي كان يجب أن يتحقّق من ملامح وجهها قد كان ماثلاً أمامها، الشخص المنتظر يُمكن الآن أن يُدرك معنى سقوط تلك التنورة. وحينها استطعتُ أن أسمع ما كانت تقوله: «أوه! لكن ماذا تفعل هناك؟» كانت الصرخة جدّ مسموعة الآن، وميزتُ المرأة جيداً. ربّما كانت قد تجاوزَت الثلاثين، والعينان اللتان كانتا لا تزالان تغمزان بدتا لي واضحتين، رماديتين أو بلون البرقوق، الشفتان غليظتان والأنف عريض شيئاً ما وأرنبتاه حادّتان من شدة الغضب، لابد أنها قد انتظرَت لوقت طويل، أطول من الوقت الذي انصرَم منذ أن عاينتُها. كانت تمشي مُترنّحة فتعثرت، وسقطت على أرض الساحة، فانسخت تنورتها البيضاء مُباشرة، وأضاعت إحدى فردتي حذائها. استوت بجهد وهي غير راغبة في أن تطأ الرصيف بقدمها الحافية، كما لو كانت تخاف أن توسخ أيضاً باطن قدمها الآن بعد أن حلّ موعد لقائها، يجب الآن أن يكون قدماها نظيفتين إذا ما حدّق فيهما الرجُل الذي هي على موعد معه. استطاعت أن تنتعل فردة الحذاء دون أن تسند قدمها إلى الأرض، نفضَت التنورة، وصرخت: «لكن ماذا تفعل هناك؟ لماذا لم تقل لي أنك قد صعدت؟ ألا ترى أني أنتظرك مُنذ ساعة؟ (قالت ذلك بلهجةٍ إسبيليّة جلية، وبتلفّظ ينطق التاء سيناً). وأثناء قولها ذلك عادت من جديد إلى القيام بحركة التعلّق، خبطة جامدة للذراع العارية في الهواء والدوران السريع للأصابع الذي يُرافقها. كان

ذلك مثلما لو كانت تقول لي: «أنت ملك لي» أو «أنا سأقتلك»، وبحركتها يُمكن أن يُمسكني مخلب ويسحبني بعدئذ. هذه المرّة صرخت عالياً وكانت جدّ قريبة، حتى إني خشيت أن تستطيع إيقاظ زوجتي في سريرها.

ماذا يحدث؟ قالت زوجتي بوَهن.

استدرتُ، كانت مُضطجعة في الفراش، بعينين خائفتين مثل عيني مريضة تستفيق وهي بعدُ لا ترى شيئاً، ولا تعرف أين هي، ولا لماذا تحسّ أنها مُرتبكة. كان الضوء مطفأ. في تلك اللحظات كانت تجسّد المريضة؟

لا شيء، عودي إلى نومك، أجبتُها.

لكني لم أدنُ لكي أداعب خصلات شعرها، أو لكي أهدّئها كما كنتُ سأفعل في أيّ ظرف آخر، لأنني لا أستطيع أن أبتعد عن الشرفة، وبالكاد أن أبعد نظري عن تلك المرأة التي كانت مُقتنعة بأنها على موعد معي. الآن كانت تراني جيّداً، ولا مجال للشك عندها أني كنت الشخصَ الذي اتفقت معه على موعد مُهمّ، الشخص الذي جعلها تُعاني من الانتظار وأهانها بغيابه الطويل. "ألم تر أني كنتُ أنتظرك هناك مُنذ ساعة؟ لماذا لم تقل لي شيئاً!" كانت تزعق الآن في وجهي غاضبة، وهي تقف أمام الفندق وتحت شرفتي. "هل ستسمعني! أنا سأقتلك!" صرخَت. ومجدداً قامت بحركة الذراع والأصابع، حركةِ إمساكها بي.

لكن ماذا يحدث؟ عادت تسأل زوجتي فزعة من سريرها.

في تلك اللحظة تراجعتُ إلى الخلف، وواربتُ أبواب الشرفة، لكن قبل أن أفعل ذلك استطعت أن أرى أنّ امرأة الشارع، بحقيبة يدها الضخمة والمتقادمة، وحذائها ذي الكعب العالي والساقين المتينتين والمشية المترنّحة، كانت قد انحجبت عن مرمى بصري، لأنها كانت قد دخلت الفندق وهي مُستعدة للصعود بحثاً عني لكي يتحقق موعدها. أحسستُ بفراغ لمّا كنتُ أفكّر فيما يجب أن أقوله لزوجتي المريضة لكي أفسّر لها الاقتحام الذي يوشك أن يحدث. كنّا في رحلتنا لشهر العسل، وفي مثل هذه الرحلة لا يُستحبُّ أن يتمّ أيّ اقتحام لأيّ غريب، فإن لم أكن أنا غريباً، أظنّ أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشخص الذي كان يصعد الآن عبر السلالم هو كذلك. أحسست بفراغ وأغلقت الشرفة. وتهيأت لأفتح الباب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليد التي تكتب

خوسيه ماريا ميرينو

قبل أن يُجروا له عملية زرع عضو، كان هو يُذكّر أصدقاءه مازحاً بأفلام الأيدي المفرعبة التي كانت تُجبر أصحابها الجُدد على ارتكاب فظاعات. ومع ذلك، فإنّ إمكان أن يصير المرءُ مبتور اليد ويعود إلى الوقت السابق على الحادثة التي قد سلبته يده، والرغبة في أن يحشها مرّة أخرى مُتّحِدَة بجسده وإن أتت من جسد مُختلف عن جسده، يُلغي لديه أيّ تحفُّظٍ يُمكن أن تثيره تلك القصص العجيبة.

بعد عملية زرع العضو، وضع كلّ آماله في نجاح العمليّة. وبدأت تتنامى بهجتُه عندما بدأت الأصابع ببُطء شديد تتحرّك، واحداً تلو الآخر، ووجد في الفراغ، الذي كان قبلُ شبحيّاً ذلك الجزء من جسده، الوجود المألوف لليد القادرة يوماً عن يوم على إنجاز مهارة أكبر.

كان يعرف جيّداً خطر أنّ جسدَه لم ينته بعد إلى الاستجابة للأنسجة الجديدة، ولكنّه كان على استعداد في أعماق إرادته أن تبقى اليد الجديدة معه إلى الأبد.

المشكلة بدأت أيضاً شيئاً فشيئاً، على شكل ارتباك، مع الإحساس بأنه قد مضى يُهيمن عليه، ليس غرابته تجاه اليد، ولكن غرابة اليد تجاه الجسد الذي كان قد تمّ ربطها به. الأطباء لم يستطيعوا أن يفهموا تماماً ما كان يحدث، فأنسجة اليد كانت في كلّ حين سليمة وقوية أكثر من ذي قبل، ولكن بقية الجسد كان يكشفُ انخفاضاً في مناعاته الدفاعيّة وهو ما كان يُهدّد بلا انتظامات خطيرة.

مضى المريضُ في سقوط نحو فتور هفّة تدريجيّ، نحو نوع من اللامبالاة العامّة التي يبدو أنّ يده الجديدة وحدها التي سلِمَت منها. مُضطجعاً على سريره في المستشفى، وخاضعاً لعلاجات كانت تحاولُ أن تمنع الإبادة التدريجيّة لباقي الأعضاء وأجزاء الجسم جميعها، وحدها اليد الجديدة كانت تكشفُ عن حيويّة.

لمّا مات، قرّر الجرّاح، وقد لاحظ النجاح النسبيّ للعملية، أن يحتفظ بتلك اليد لعمليّة زرع مُحتفلة.

في حالتي، يبدو أنها وباقي جسدي قد حقّقت تناغماً بشكل رائع، رغم أنها تكتب أحياناً لحسابها الخاصّ نصوصاً مثل هذا النصّ ذاته الذي يبدو الآن أنها بصدد إنهائه، نصوص تملؤني إعجاباً ودهشة.

من أجل حكاية سريّة للنجاح

في البداية كنتُ أكتفي بأن يُعجَب بإبداعاتي الكتابيّة بعضُ أصدقاء المدرسة. وبعد ذلك كنتُ أتوق لنشر كتاب، فقط لك، وأحسستُ بأني سعيد لمّا وجدت بين يدي النسخة الأولى من النسخ الثلاثمائة التي طبعَها ذلك الناشر المتواضع. في روايتي التالية كنتُ قد صرتُ متخوّفاً ألاّ أحصل على رقم مبيعات يتجاوزُ ألفي نسخة، وأن تبدوَ المتابعات النقديّة، رغم أنها مُرضية، قليلة وتافهة. كنتُ للتوّ قد فزتُ بجائزة النشر الأكثر أهمية في البلاد، وبدأت أتمنّى بفارغ الصبر نيل جائزة النقد، ولمّا حصلتُ عليها، شعرتُ أنّ ما سيجعلني راضياً حقّاً هو أن أحصل على الجائزة الوطنيّة. منحوني الجائزة الوطنيّة، لكني أدركتُ أنّ عملي لم ينَل الصدى الذي كان يَستحقّه في الأوساط الأمريكيّة، بل إنهم وحتى اللحظة التي لم يُكافئوني فيها بعدُ بجائزة رومولو غاييغوس وجدتُ نفسي جدّ مكروب. لم يكن قلقي ليتوقّف، لأنه يبدو لي أنّ كُتبي قد تُرجِمَت بشكل واسع، وعندما تكاثرَت الطبعات الأجنبية، فإنّ عدد النسخ لم يكن أبداً ليستجيب البتة لانتظاراتي في التوزيع.

وقدّمَت عنها أطروحات في العديد من الجامعات في العالم، رغم أنني كنت أشعرُ ذاتي بالخزي بأنها في العديد من الجامعات الأخرى لم تنَل القيمة التي تستحقّها. حينئذ كنتُ أتمنّى بقوة أن ألتحق بالأكاديمية الملكيّة. وتمّ تعييني عضواً في الأكاديمية، فبدأتُ أشعر بأني سيئ الحظ، لأن اسمي لا يتردّد بقوة لنيل جائزة سربانطيس. منحوني جائزة سربانطيس، لكن فرحتي لم تدم طويلاً، لأنني كنتُ مقتنعاً بأن أعمالاً بحجم أعمالي تستحقّ جائزة نوبل. ولمّا حصلتُ أخيراً على جائزة نوبل، خيّب أملي ألاّ يكون ذلك خبراً مدوياً في كلّ صُحف العالم. كلّ هذه اللاطمأنينة حول أهميتي الأدبيّة بدأت تُضعف كثيراً قلبي، متّ بشكل مُباغت وأنا بعدُ لم أصر شيخاً عند خروجي من حفل تكريم على شرفي لم تحضر فيه كلّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشخصيات التي كان يجب أن تقوم بذلك. والآن، في قاعة اجتماعات البارناسوس، أتأكّد بخيبة أمل لا تُحتمَل أنّ آخرين، كثيرين، هم الذين يشغلون المقاعد المفضّلة.

الفنجان الصغير

سكبتُ القهوة في فنجان صغير، وأضفتُ السكّرين، وحرّكت بالملعقة الصغيرة، ولمّا أخرجتُها، لاحظتُ على سطح السائل الساخن دوامة صغيرة تتّسع فيها رغوة المادّة المُحلّية في شكل إهليلجي بينما كانت تذوب. تُذكّرني بهذا الشكل صورةُ مجرّة في الثواني الأربع أو الخمس التي تستغرقها لتختفي، أتخيّل أنها كانت حقّاً، بنجومها وكواكبها. مَن يُمكنه أن يعرف ذلك؟ أحمل الآن الفنجان الصغير إلى شفتيّ وأفكّر أنني سوف أشرب ثقباً أسود. من المؤكّد أن ديمومة ثوانينا لديها سُلّمٌ آخر، ولكن ربّما يتشكّل الكون الذي ننتمي إليه من عدّة قطرات من مادّة في طور الذوبان في سائلٍ ما، قبل أن يشرّبه حلقوم عملاق.

الحلول محلّ الغير

ذلك الصباح، لمّا كان ألبرطو على وشك أن يواصل تنكيس رأسه الصغير في الصباح على عادته بينما نهضَت زوجته لتُعدّ الإفطار، أحسّ أن هناك من كان يربت بعذوبة على كاهله. «روزا، أيّتها الطيبة في الأعلى،» كان يقول روزا مُرتبكاً كما لو من آثار حلم. نهض ألبرطو بزعونة ومضى إلى الحمّام، ليجد نفسه في المرآة قد تحوّل إلى روزا في ملامحها الخارجيّة، وإن لم يكن في أفكارها، ولا في إدراك هويّته الحقيقيّة.

مُنذ تلك اللحظة جعله ذهوله يواصل، وكأنه إنسانٌ آلي، الروتين الذي تختصّ به روزا: إعداد ركوة القهوة والعصائر وتسخين الحليب، وإشعال مُحمّصة الخبز، بينما كان يُشجّع الأطفال على الاستيقاظ من النوم، ويقودهم إلى الحمّام، ويغسل لراؤوليتو بعد أن قضى حاجته، وكان يُراقب خابيير وآنا لكي يغسلا فمهما، ثم يمضي يُلبس الثلاثة ملابسهم. عندما كان الأطفال على وشك الانتهاء من وجبة الإفطار، دخلَت روزا إلى المطبخ، كما لو أنّها لم تنتبه إلى ذلك التحوّل المُهول الذي قام بتبديل شكليهما الخارجيّين. بعد ذلك، وبينما كان هو يُنهي إعداد الأطفال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتهيىء محافظهم من أجل المدرسة، جهّزت روزا نفسَها، حملت المحفظة التي يأخذها ألبرطو معه كلّ يوم إلى المحكمة وودّعت بقبلة، حتى الليل، إذ قالت إنّها في ذلك اليوم كان لديها وجبة غذاء مع الزملاء. وأيضاً كما في المنام، ولكن وهو يتحسّس انصرامَ الساعات، أخذ الأطفالَ إلى مدارسهم، ومضى للتسوُّق، وهو يَسحبُ تلك العربة التي يتزايد ثقلها تدريجيّاً والتي ساعده الحارس على حملها في المصعد، شغَّل غسّالة الملابس وغسّالة الصحون، رتَّب الأسِرَّة. ولم يغسل الأرض تقريباً، لأنّ ذلك الشيء تختصّ به الخادمة التي تأتي في اليوم التالي، ولكنّه كان لا يزال ينبغي له أن يكوي الملابس لفترة من الوقت، على عجل، إذ كان يجب عليه أن يذهب إلى البنك وإلى مكتب البريد قبل أن يُغلقا أبوابهما. بعد تناوُل الغداء، مضى راكضاً لأجل الأطفال، لأنّه كان عليه أن يأخذ الأكبر إلى المسبح، والطفلة إلى الرقص. استقبلهُم في الوقت المحدّد، ولما أتوا إلى البيت، نزعَ عنهم ملابسَهم وحمَّمهم وأعدّ العشاء. خابيير لم يَفهم بعضَ الأشياء في المدرسة، اضطرّ أن يشرحَها له. أنيتا كان لديها بعض الحُمّى، ولكن لم تكن جدّ مرتفعة. في الليل، لمّا أتت روزا أخبرَته أنّهم في المحكمة لم يوافقوا على طلب التقاعد بسبب العجز الجسديّ، لعاملة تنظيف. كانت لديها ثقة كبيرة فيما كانت تقوله، وكانت تؤكّد مراراً: «لا يُمكن أن أتقبّل أنّ الأعمال المنزليّة تتطلّب الكثيرَ من الجهد»، لم يُجب ألبرطو بشيء ولكنّه بَعد أن اضطجع في الفراش، استغرقَ وقتاً طويلاً قبل الخلود إلى النوم، وهو في قلق من أنّ الاستيقاظ لن يعود إلى إعادة الأمور إلى مكانها.

ذكرى من البحر

لمّا مرّت أكثر من ساعة وصارت نارُ المدخنة مُنطفئة تقريباً، وبدأ صمتُ العزلة الجبليّة يُسرِّبُ صوتاً إيقاعيّاً مُلتبساً مضى يتّضح شيئاً فشيئاً وسحبَه من فتنته: كان صدى البحر. في غضون دقائق، تحوّلَ الصوت قويّاً جدّاً، ودوّى عنيفاً تحته، كما لو أنّ بحراً حقيقيّاً يسحب أمواجَه المُتعاقبة إلى صالون البيت الكبير ويخبط جدرانه، في الطابق السُّفلي. مُنذهلاً، نهض مُتوجّهاً إلى الدرج ونزل حتى وجدَ نفسَه في وسط تلك الارتجاجات الإيقاعيّة التي كانت مسموعة فقط.

لكن الانكسار اللامرئي للموجات التي كانت تتردّد أصداؤها في الصالون جلبت له ذكرى كثيفة للبحر، فأحسّ ذاته معضّداً بالمياه، وعلمَ أنه غريبٌ حقاً عن جسده الإنساني المصنوع من أعضاءٍ مُتناثرة، واكتشفَ ذاته وهو يحرّكُ بفرح زعانفَ وذيلاً للصيد بين أسراب السمك الهاربة. ماذا أفعل أنا هُنا، ماذا حدث؟ فكّر بينما كان صدى البحر يتوقّف فجأة.

الصوت الصغير

هل تتحدّثون عن الكون؟ الذرة هي الكون! هل تتحدّثون عن الحياة؟ الخليّة هي الحياة! هل تتحدّثون عن فضاء؟ كلّه يتّسع في راحة الكفّ! هل تتحدّثون عن الزمن؟ هذه اللحظة ذاتها هي الأبديّة! لكن صَوتها كان صغيراً جدّاً، ولا أحد انتبه إليه.

عن الكُتب وعن الورود

«في بتلات الكُتب وفي صفحات الورود كانت قد كُتِبَت أفضلُ الحكايات التي أمكنَ أن يتخيّلها الكائنُ الإنساني»، كان يُفكّر لمّا لم تعُد توجد لا الكُتب ولا الوُرود.

قدمٌ

من أعزب، انتقل إلى شيخ العُزّاب وهو مُتعوّدٌ جدّاً على النوم وحده. وفي ليلة ما، أيقظه الشعور بلمسة غير مألوفة، فقد اصطدَمت إحدى قدميه بجلد دافئ وناعم لقدم ليست له. يحتفظ بقدمه مُلتصقة بالقدم الأخرى، ويمدّ ذراعَه بعناية للبحث عن الجسد الذي يفترضُ أنه يضطجع بجانبه، ولكنّه لا يجدُه. يُشعل الضوء، يَفصل الثياب عن السرير، لا يوجد شيءٌ هنالك في الداخل. تخيّلَ أنّه كان يحلم، ولكن بَعد بضعة أيام سيستفيق مُجدّداً عندما سيشعرُ مرّةً أخرى بتلك اللمسة من النعومة والدفء الغريب، وحتى بشكّل باطنِ قدَمٍ تستندُ إلى مشط قدمه. هذه المرّة يبقى ساكناً، يَقبل المُلامسة كمُداعبة، قبل أن يعود إلى النوم. ومُنذ ذلك اليوم، تأتي القدمُ الصغيرة لتبحث عن قدمه ليلةً بعد أخرى. خلال النهار، يجدُه زملاؤه وأصدقاؤه أكثر حماساً ومرحاً، مُتغيّراً. إنّه ينتظر قدوم الليل ليلتقي في العتمة بمُلامسة تلك القدم لقدمه، بنفاد صبر عاشقٍ شابّ قبل موعد لقائه بالمعشوقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُسافر مُتصنّع

مسار شراب ما قبل الغذاء لم يكُن مثل كلّ الأيام. عند لقائهم به، كثيرون أظهروا ابتهاجاً كبيراً، كانوا يُهنئونه على عودته، ويفرحون لعودته بينهم. أهلاً بك، يا راميرو، لقد كانت الساعة أزفت لكي تعود، مرحباً، لقد مضيتَ بعيداً جدّاً، كانوا يدعونه من حانة إلى أخرى، كانوا يقولون: لقد عاد راميرو، يجب علينا أن نحتفلَ بذلك. شربَ كثيراً، ولمّا مضى إلى بيته لتناوُل الغذاء مُتأخّراً بعد أن ودّعهم، كان يمشي غير واثق من نفسه، كان رأسه مشحوناً بكثير من الالتباس، ولكن ليس إلى درجة ألاّ يعرف أنّه لم يُغادر قط هذه المدينة وأن راميرو ليس اسمَه.

الخروج الرابع

الأستاذ سوتو، وبفضل بعض الوثائق الآتية من أسواق طليطلة، قد اكتشف أنّ الفصل الأخير من الجزء الثاني من الدون كيخوتي، المعنون بـ: «عن كيف سقط دون كيخوتي مريضاً، وعن الوصية التي تركها وموته»، هو تأويل استبدل به رجلُ دين جزءاً هامّاً من النصّ الأصليّ ونهايتَهُ الحقيقية ليمنحَ الرواية بُعداً مثالياً.

وعليه، فقد كان هنالك خروجٌ رابع للنبيل السيّد العبقري، وفيه التقى بالساحر الذي كان يشبك شؤونه، وهو جندي قديم مبتور اليد، كان يُساعده موريسكي مُثقف، فتمكّن من هزمهما.

وهكذا، صارَت الطواحين عمالقة، والخانات قلاعاً والقطعان جيوشاً، وتزوج هو، بعد مآثرَ لا تُعَدّ ولا تُحصى، من دولسينيا ديل طوبوسو، وأنشأ سُلالة من الفرسان الجوالين الذين ساعدوا حتى الآن على إنقاذ العالم من المُحتالين والأنذال، الشرّيرين والنُغال الذين ما زالوا يتطلّعون إلى فرض استبدادهم المشؤوم علينا.

أنْ نكُفّ عن أن نكونَ قِرَدَةً

أوغوستو مونتيروسو(5)

روحُ البحث لا حدودَ لها. في الولايات المُتحدة وأوروبا تمّ في الآونة الأخيرة اكتشاف أنّ هناك صنفاً من القردة الهسبانية - أمريكية قادرة على أن تُعبّرَ عن ذاتها كتابةً، ردود فعل القرد المُجِدّ أنّه من فرط نقره على ملامس آلة كاتبة ينتهي، وبشكلٍ عشوائيٍ، إلى كتابة سوناتات شكسبير مُجدّداً. مثل هذا الأمر، بما أنه طبيعي، فهو يَملأ هؤلاء الناس الطيّبين دهشة وعجباً، ولا نعدم أن يوجد من يُترجمُ كُتُبنا، ولا أقلّ من ذلك بكثيرٍ وُجود عاطلين يشترونها، مثلما كانوا من قبل، يشترون الرؤوس الصغيرة المقلّصة لأفراد قبيلة خيباروس الهندية. مُنذ أكثر من أربعة قرون استطاع فرَايْ بَارطولومِي دي لاس كاسَاس أن يُقنع الأوروبيّين أننا بشرٌ وأننا نمتلك روحاً لأننا كُنا نضحك. والآن يُريدون أن يُقنعوا أنفسَهم بالفكرةِ نفسِها لأنّنا نكتبُ.

الذكرى المئوية

قلت: -... ما يُذكّرني بقصّة السويدي الراحل أوريست هانسون، أطول رجُل في العالم (في إبانه. لأنّ الرقم القياسي الذي حقّقه قد تمّ اليوم تحطيمه بشكل مُتكرّر).

في عام ١٨٩٢ قام بجولةِ احتفاء عبر أوروبا مُستعرضاً طول قامته البالغة مترين وسبعة وأربعين سنتيمتراً. الصحفيون، بقوّة الخيال التي تُميزهم كانوا يُسمّونه الرجُل الزرافة.

تخيّلوا. بما أن ضعفَ مفاصله لم تكُن تسمحُ له بالقيام بأيّ جهد تقريباً، إذ لإطعامه كان من الضروريّ أن يتسلّق أحد أفراد أسرته أغصانَ شجرة لوَضْع كويرات خاصّة من اللحم المفروم في فمه، وقِطع صغيرة من سكّر البنجر كحلواء. أقارب آخرون كانوا يَعقدون خيوط حذائه. وكان قريبٌ آخرُ يعيشُ دوماً مُنتبهاً للّحظة التي يحتاجُ فيها أوريست أن يلتقط من الأرض شيئاً من غير قصد، أو بسبب عدم رشاقته، قد ينفلتُ من بين يديه. كان أوريست يلمحُ الغيوم ويسمح للآخرين أن يَخدموه. في الواقع، لم تكُن مملكته تنتمي إلى هذا العالم، ويُمكن التكهّن في عينيه الحزينتين

والنائيتين حنيناً مُستمرّاً لأجل الأمور الدنيويّة. في أعماق قلبه كان يُحسّ بحسد خاصّ نحو الأقزام، ويحلم نفسه دائماً وبلا جدوى وهو يحاولُ أن يصلَ إلى مقارع الأبواب وهو يمضي راكضاً، مثلما في مساءات صباه.

لقد بلغت هشاشته حدوداً قصوى لا تُصدّق. فبينما كان يمضي مُتنزّهاً عبر الشوارع، كانت كلُّ خطوة له تجعل المارّة حتى الإسكندنافيين منهم يخافون من سقوط مُروع. مع انصرام الوقت أبانَ والداه عن ميول براغماتية جشعة (التي استحقّت أكثر من انتقاد) عندما قرّرا أنّ أوريست لن يخرج إلاّ أيام الآحاد، مسبوقاً بعمّه الشقيق، إريك، ومتبوعاً بأولاف الخادم، الذي كان يتلقّى في قبّعة القطع النقديّة التي كانت تعتقد النفوس الطيبة أنه من الواجب عليها أن تؤدّيها ثمناً لتلك الفرجة المليئة بخطر جاذبية الثقل. وهكذا نمت شهرتُه.

لكن من الصحيح أنه لا توجد هناك سعادة كاملة. شيئاً فشيئاً بدأ يتسلّل إلى روح الطفل أوريست ولعٌ لا يُقاوَم لتلك القِطع النقديّة. وأخيراً، كان هذا الانجذاب المشروع نحو المعدن المسكوك محدّداً لانهياره وسبباً في نهايته الغريبة، التي سنعرفها في مكانها المُناسب. لقد حوّله بارنوم إلى مُحترف. ولكن أوريست لم يكُن يشعرُ بدواعي الفنّ، ولم يكُن السيرك يهمّه إلاّ كمصدر للمال. ومن جهة أخرى، فإنّ روحه الأرستقراطية لم تكُن قادرة على مُقاومة رائحة الأسود ولا أن يُعامله الناس بإشفاق. لذلك قال وداعاً لبارنوم.

في سنّ التاسعة عشرة، بلغ قياس طوله مترين وخمسة وأربعين. بعدئذ جاءت فترة استراحة مُطَمْئنة، ولم يكتشف إلاّ في سنّ العشرين قياس قامته العادي الذي بلغ مترين وسبعة وأربعين، والذي لم يبرَحه حتى وفاته. وقد حصل هذا الاكتشاف لمّا كان مدعوّاً لزيارة لندن بسبب نزوة ظريفة من صاحبَي الجلالة ملكَي بريطانيا، توجه إلى القنصلية الإنجليزية في ستوكهولم للحصول على التأشيرة. وعلى هذا النحو استقبلَهُ القنصل البريطاني، من دون إبراز أيّ علامات كبرى للدهشة، حتى إنّه تجرّأ على أن يسأله عن هُويّته المُميزة الخاصّة، بل والشك في أنّ قياس قامته يبلغ مترين وخمسة وأربعين لحظة تسجيل تدوين هويّته. عندئذ كشفَ الكوس أنّ القياس

كان مترين وسبعة وأربعين، فقام القنصل بالحركة المطفئة التي تعني: «هذا ما كنت أقوله أنا»، لم يُعلّق أوريست بشيء. دنا بصمت من النافذة، ومن هناك، مُستاءً، تأمّل لدقائق طويلة البحر الهائج والسماء الزرقاء بهدوء.

ومن الآن فصاعداً زاد فضولُ ملوك أوروبا من إيراداته. وفي زمن قصير صار من العمالقة الأكثر غنى في القارّة، واتّسعت شهرته لتشملَ حتى الباتاجونيين، والياكيين والإثيوبيين. في تلك المجلّة التي كان يُديرُها روبين داريو في باريس، بالإمكان رؤية صورتَين أو ثلاث صور فوتوغرافية لأوريست، مُبتسماً بجانب أسمى الشخصيات في تلك الفترة. وثائق رسومات بيانيّة نشرَها الشاعر البارز في الذكرى العاشرة لوفاته، كتكريم جدّ مُستحقّ بعد وفاته.

وسرعان ما سقط اسمه من الصّحف.

لكن، على الرغم من كلّ المُناورات التي تمّ تلفيقها للحفاظ على سريّة الأسباب التي اجتمعت خلال أفوله غير المُتوقّع، نعلمُ الآن أنّ موته المأساويّ كان في المكسيك خلال الأعياد المئوية، التي حضرَها بدعوة رسميّة. كانت الأسباب هي خمسة وعشرين كسراً أصيبَ بها لمّا انحنى ليلتقط قطعة نقديّة ذهبيّة (بالتحديد «مئوية») التي في خضمّ حماسه الوطنيّ الحقير ألقى بها إليه الشيواوي المُظلم سيلفستر مارتن، أحد أتباع دون بورفيريو دياز.

العالم

الإله لم يَخلق بعدُ العالم؛ هو فقط يتخيّله، مثلما بين الأحلام. لذلك فالعالم مُكتمل، لكنّه مُلتبس.

القفزة النوعيّة

- ألا يوجدُ جنسٌ ماعدا الجنس البشريّ يُمكن أن يَحدث له ذلك؟ قالت حانقة وهي ترمي الصحيفة في وعاء القمامة.

- ولِمَ لا، بالنسبة إلى الإنسان؟ قال هو.

شاهدة قبر عثر عليها في مقبرة جبل

بارناسوس لسان بلاس، س. ب.

كتبَ مسرحية دراميّة: قالوا إنّه كان يَعتقد نفسَه شكسبير.

كتب رواية، قالوا إنّه كان يَعتقد نفسَه بروست.

كتبَ قصّة قصيرة: قالوا إنّه كان يَعتقد نفسَه تشيخوف.

كتبَ رسالة، قالوا إنّه كان يَعتقد نفسَه اللورد تشيسترفيلد.

كتبَ يوميات، قالوا إنّه كان يَعتقد نفسَه بافيسي.

وكتب كلمة وداع، قالوا إنّه كان يَعتقد نفسَه سرفانتس.

توقّفَ عن الكتابة: قالوا إنّه يَعتقد نفسَه رامبو.

كتبَ شاهدة قبر: قالوا إنّه يَعتقد نفسَه ميتاً.

خصب

اليوم أحسُّ أنني في حالة جيدة، أحسّني بلزاك أنا الآن أنهي هذا السطر.

هيراقليطيّة

لمّا يكون النهرُ بطيئاً ولديك درّاجة جيّدة أو حصان، أجِل يُمكنُ السباحة في النهر نفسِه مرّتين (وحتى ثلاث مرّات، حسب الاحتياجات الصحيّة لكلّ شخص).

قصّة عجيبة

أن تحكيَ قصّةَ اليومِ الذي تمّ فيه تأجيلُ نهايةِ العالم بسبَب سوء أحوال الطقس.

سخرية

السخرية هي الواقعيّة التي يتمّ المُضي بها إلى نتائجها النهائيّة. باستثناء كثير من الأدب الساخر، كلُّ ما يفعلهُ الإنسان مُثيرٌ للضحك أو ساخر.

في الحروب يَكفُّ عن أن يكون كذلك لأنه خلال ذلك يكفُّ الإنسانُ عن أن يكون كذلك. قال إدواردو طوريس: «الإنسان لا يكتفي بأن يكون الحيوانَ الأغبى في الخلق، فوق هذا يَسمحُ لِنفسِهِ بترَف أن يكون التافهَ الوحيد».

الحياة المشتركة

شخصٌ ما يَشتكي بمرارةٍ في كلِّ آنٍ بأنَّه مُضطرٌ لِتحمُّلِ صليبِه (الزوج، الزوجة، الأب، الأمّ، الجدّ، الجدّة، العمّ، العمّة، الأخ، الأخت، الابن أو الابنة، زوج الأمّ، زوجة الأب، الربيب، الربيبة، الحم، الحمة، الصّهر، الكنة) وهو على حدّ سواء صليبُ الآخرِ، الذي يشتكي بمرارةٍ ضرورةَ تحمُّلِ الصليب في كلِّ حينٍ (الكنّة، الصهر، والحمة والحم والربيبة، والربيب، زوجة الأب، زوج الأم، الابنة والابن والأخت، والأخ والعمّة، والعمّ، والجدّة والجدّ، والأمّ والأب، والزوجة والزوج) والتي كان من حظِّهِ تَحمُّلُها في هذه الحياة هكذا، كلٌّ حَسَبَ قدرته، ولكلّ بحسبِ حاجاته.

أعرفك أيها القناع الصغير

الدعابة والخجل يأتيان عادةً معاً. أنت لست استثناء. الدعابة قناعٌ والخجل قناعٌ آخر. لا تَدَعِ الآخرين يسلبونك كليهما في نفس الآن.

الصرصور الحالم

كان صرصورٌ اسمه غريغوريو سامسا. وكان يحلمُ أنه كان صرصوراً يُدعى فرانز كافكا الذي كان يحلمُ أنه كاتبٌ كان يكتب عن موظف يُدعى غريغوريو سامسا الذي كان يحلمُ أنه صرصور.

تكريم لمازوخ

ما كان قد تعوّد عليه لمّا طلّق مُؤخّراً للمرّة الأولى، ووجدَ نفسه أخيراً وحده، وشعرَ أنه سعيدٌ جدّاً أن يكون حرّاً مرّةً أخرى، وكان ذلك، بعد وجوده خلال بضع ساعات يروي النكات ويُقهقه مع أصدقائه في المقهى، أو في كوكتيل المعرض حدّ أنهم جميعاً كانوا يموتون ضحكاً من الأشياء التي كان يقولها، أن يعود ليلاً إلى شقّته مُجدّداً أعزب، مغموراً بالسكينة وبلذةٍ مُتمهّلة في الشروع في نقل أدواته، أولاً أريكة،

كان يضعها في المنتصف بين دورة الأسطوانة والطاولة، وبعدئذ زجاجة الروم وكأس متوسطة الحجم، زرقاء، من زجاج الكاريتون، وبَعدها تسجيل للسمفونية الثالثة لبراهمس بقيادة فيليكس فينغارتنر، ثم نسخته الثخينة والمجلّدة لدار النشر الجديدة إسبانيا ش. م، المكسيك، ١٩٤٤، من الإخوة كارامازوف. ومباشرة القيام بتوصيل دورة الأسطوانات، وفتح الزجاجة، وصبّ كأس، الجلوس وفتح الكتاب في الفصل الثالث من الخاتمة لقراءة، بشكل مُتكرّر، ذلك الجزء الذي يبدو فيه الطفل لوشا ميتاً في تابوت أزرق ويداه منثنيتان على صدره وعيناه مُغلقتان، والذي فيه يصرخ الطفل كوليا منفعلاً، عند معرفته عن طريق أليوشا أن ميتيا شقيقه بريء من موت أبيه، ومع ذلك سوف يموت، إنّه يرغب في أن يموت من أجل الإنسانية جمعاء، أن يُضحّي بنفسه من أجل الحقيقة حتى وإن كانت عاراً. لأجل مواصلة المُناقشات حول المكان الذي يجب أن يُدفن فيه لوشا، وبكلمات الأب، الذي يحكي لهم أن لوشا طلب منه عندما يُغطّيه التراب أن يُفتّت قطعة من الخبز لكي تنزل طيور الدوري، ويسمعها ويفرح لمّا يَشعر بأنه مرافَق، وفيما بعد هو نفسه، لوشا وقد صار دفيناً سيقطع خبزاً وينثره قِطعاً صغيرة، وهو يهمش: «تعالي، وطيري هنا يا عصافير، طيري يا طيور الدوري» ويخسر في كلّ لحظة الحكم ويُغمى عليه ويظلّ كما لو أنه مضى ثم يعود إلى ذاته ويشرع من جديد في البكاء، ويندم على أنه لم يُعط لأمّ لوشا زهرة من نعشه ويريد أن يذهب راكضاً ليقدّمها لها، حتى يتوجّه أليوشا في النهاية، في نوبة إلهام، بجنب حجر كبير حيث يرغب لوشا أن يُدفن، إلى رفاق هذا الأخير من الطلاب ويُلقي خطاباً يقول لهم فيه تلك الأشياء التي تبعث الأمل، التي تتعلّق بكونهم قريباً سينفصلون، ولكن في كلّ الأحوال، ومهما كانت الظروف التي يجب أن يواجهوها في الحياة، يجب عليهم ألاّ ينسوا تلك اللحظة التي يشعرون فيها أنّهم طيّبون، وإذا حدث لهم في أيّ وقت لمّا سيصيرون كباراً أن ضحكوا من أنفسهم لكونهم كانوا طيّبين وأسخياء، سيقول صوتٌ في قلبهم: «لا، أنا لا أتصرّف بشكل جيّد عندما أضحك من نفسي، لأنّ هذا الأمر لا يستوجب الضحك»، وأنه يقول لهم ذلك إذا ما صاروا أشراراً، لكن ليس ثمّة من سبب لكي نصيرَ أشراراً، أليس كذلك يا فتيان، وأنّه حتى في خضمّ ثلاثين عاماً يتذكّر تلك الوجوه الموجّهة نحوه، والتي يُحبّها جميعها، والتي سيكون لها جميعاً من الآن فصاعداً مكانة في قلبه، مع الانفجار النهائيّ من

الحماس الذي صرخ به الأطفال المتحمّسون في جوقة: يحيا كارامازوف!. وإذا حدث لهم في أيّ وقت لمّا سيصيرون كباراً أن ضحكوا من أنفسهم لكونهم كانوا طيّبين وأسخياء، سيقول صوتٌ في قلبهم: «لا، أنا لا أتصرّف بشكل جيد عندما أضحك من نفسي، لأنّ هذا الأمر لا يستوجب الضحك»، وأنه يقول لهم ذلك إذا ما صاروا أشراراً، لكن ليس ثقة من سبب لكي نصيرَ أشراراً، أليس كذلك يا فتيان، وأنّه حتى في خضم ثلاثين عاماً يتذكر تلك الوجوه الموجّهة نحوه، والتي يُحبها جميعها، والتي سيكون لها جميعا من الآن فصاعداً مكانة في قلبه، مع الانفجار النهائيّ من الحماس الذي صرخ به الأطفال المتحمّسون في جوقة: يحيا كارامازوف! قراءة كانت تنمو بإيقاع جدّ محسوب، بحيث يتزامنُ الانتهاء منها بعبارة «يحيا كارامازوف» بالتحديد مع النغمات الأخيرة من السيمفونية، للعودة إلى البدء مرّةً أخرى حسب الأثر الذي يسمحُ به شرابُ الروم، وعلى الخصوص أن يسمح في النهاية بإطفاء دوّارة الأسطوانات، وتناوُل كأس أخيرة والذهاب إلى الفراش، لأجل دفن الرأس في الوسادة بعناية والانتحاب والبُكاء مرّة أخرى على ميتيا، وعلى لوشا، وعلى أليوشا، وعلى كوليا، وعلى ميتيا.

كيف الدّنو من الحكايات

بحذرٍ، مثل أيّ شيءٍ صغيرٍ، لكن دونما خوف، أخيراً سيتمّ اكتشافُ أنّ ليس ثقة خرافة فيها أذىً ما عدا حينما تتوصّلُ إلى أنّ فيها تعلّماً. وهذا أمرٌ سيّئٌ.

لو لم يكُن سيئاً، لكان العالم تُدبّرُهُ خرافاتُ إيسوب. لكن في هذه الحالة سيختفي كلُّ ما يجعلُ العالمَ مُثيراً للاهتمام، مثل الأغنياء والأحكام المُسبقة العنصريّة، ولون الملابس الداخليّة والحرب. وحينئذ سيصيرُ العالمُ جدّ مُملّ، لأنّه لن يكون هُناك جرحى للكراسي المُتحرّكة، ولا فقراء لمُساعدتهم ولا سود ليعملوا على أرصفة الموانئ، ولا أناسٌ جِسان لمجلّة فوج.

وهكذا، فمِن الأفضل أن نقتربَ من الخرافات بحثاً عن شيء نضحكُ منه.

هذا صحيح، ها هُنا كتابُ خرافات، أسرِعْ لشرائه. لا، الأفضل أن أهديك إيّاه: سوف ترى، فأنا لم أضحك قط من قبل بهذا القدر.

صائدا القنادس

رودولفو والش

سمعَ ريناتو الطلقات. حلّقت البطّ وطيوزُ مالك الحزين، وفي البعيد غيمة صغيرة من دخّان أزرق أطلقت خصلات شعرها ببطء في السكون اللانهائي للمساء.

على حافة الليل عاد شينو بيريث، مُقطّب الجبين وصامتاً. يسحبُ خلفه مجروراً قارباً مطلياً بالأحمر، كُتب عليه بحُروف بيضاء في جانبه الأيسر: «سان فيليبي».

- لقد وجدته، أوضحَ دون أن ينظر إلى ريناطو، وأظنّ أنه للمزرعة.

وبعد توقّف أضاف:

- أعتقدُ أن الرباط انقطع.

انضمّ ريناتو بتأنّ، وهو يُدخّن غليونه، اقتربَ من الضفّة. كان ريناتو قصيراً ونحيلاً. وكان لعينيه الزرقاوين ثبات المُنذهل، الذي يُكذب التصميم شبه الصبياني للفم.

كانت سلسلة القارب جديدة، إذ رأى ريناتو أنّها كانت سليمة، لكنّه لم يقل شيئاً. في قعره كانت هناك مُعدّات صيد جديدة وبندقية من عيار ٢٢، وعلى أحد مقاعده «سترة» صوف بخطوط مُتعدّدة الألوان.

- هل اصطدت شيئاً؟ سأل ريناتو بصوت خفيض.

-لا، أجاب رفيقه. وأضاف بابتسامة فظيعة:- طيور غرة.

سمعتْ الطلقات قال ريناتو. لم يُجب شينو بيريث. وهو مُستغرقٌ في التفكير، وقصياً جلسَ على ضفّة الجزيرة الصغيرة؛ خلع نعله القماشي وغمر قدميه في الماء البارد ونظرتُهُ مُسمّرة في البعيد.

في تلك الليلة كان هناك سهر كلاب على ساحل البُحيرة، وخُطى ومصابيح يدويّة. أصوات مكتومة، كانت تحملها الرياح وتمضي بها. كان ريناتو نائماً. وكان شينو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيريث يُدخن، مُنذهلاً وبعيداً، حتى انبلج ضوء السماء.

أنهى شينو بيريث سلخ القنادس، ثم سمر جلدها. كان ريناتو يتأمّله بعينيه الزرقاوين والجريئتين.

غطّى شينو بيريث النار بالتراب، ثم مدّ بصرَه في البعيد. كان الماء قد اتخذ لوناً رصاصياً وفي الأخضر المُذهب للأسل كانت الظلال الأولى تستطيل. وفي تخوم البحيرة، المُستغرقة في السكون المسائي، ما بين الأسل الأخيرة، كانت تطفو بمحاذاة الماء سُحب من بخار.

- حسناً، يا أُخيّي. هذه الليلة يحلُّ الأجلُ، قال شينو بيريث دون أن يلتفت.

كان القاربان يتأرجحان على شاطئ الجزيرة الصغيرة. خطوط الصيد ترتعشُ بين فترات مُتقطّعة باهتزازات كهربائيّة قصيرة. بمزاج سيئ اعتقد شينو بيريث أنها أسماك ذوات الأسنان. لم يكُن بعدُ قد حان موسمُ صيد التاتاريتا، فأسماك التاتاريتا تسحبُ خيط الصيد دفعة واحدة، وتتركهُ متوتّراً ومُرتعشاً مثل وتر الكمان.

- أعلم أنك تريدُ أن تذهب، قال شينو بيريث.

لم يُجب ريناتو. وترك للصمت أن يطفوَ ويفصلَ بينهُما مُعيداً لهما عوالمهما المُختلفة بلطف، دونما لجوء إلى العنف.

وكان شينو بيريث قصير القامة، قويّ البنية، عابس الوجه، نحت بسكين حاجباه، شعراني الجلد، مُتحجّر التعبير، بليده.

وبعيداً، في الحقل، اشتعلَ الضوء، ونبحت الكلاب. وكان الماء يغرغر.

«أنا أعلم أنك تريدُ أن ترحل، فكّر شينو بيريث. أنا أيضاً أريد أن أرحل»، فكّر وهو ينظر إلى قارب المزرعة. الخطوط الملوّنة للسترة كانت تبرزُ في الظلام. لم يرغب شينو بيريث أن يلمس أي شيء. ثمّة خوف خفيّ كان يمنعه من وضع يده على أيّ من تلك الأشياء. «سوف يأتون ليبحثوا عنك» فكّر بحنق.

القمر مُكتمل: كومة من القطع النقديّة الصفراء والمرتعشة فوق القماش الرماديّ

للمياه.

في قعر منبت الأسل صرخ قندس. كانت صرخة مُتذمّرة مثل أنين كائن إنساني. رفع شينو بيريث عُنقه عن الكيس كما لو كان يُحس بالبرد.

- لقد وضعت الفخاخ، قال، فكّر ريناتو أنه ليس من الضروري أن يقول ذلك. لقد رآه وهو يَخرج مُبكراً في القارب بالفخاخ مُعدّةً لوَضعها في الأعشاش وأمكنة الأكل.

اقترب شينو بيريث من الموقد وجلس القرفصاء وهو يفركُ يديه. حينئذ أدرك أنه كان قد أطفأ النار وندم على ما فعله. «غداً سنمضي إلى الأبد»، فكّر. ثلاثة أشهر وهو ينام في أيّ مكان على هذه الأرض الرطبة والمُتعفّنة، دون أن يشعل النار ليلاً، ودون أن يبرز عضوه في النهار. كان طعم السمك عالقاً في حلقه، وبصَقَ في اشمئزاز.

- ماذا ستفعلُ، يا غرينغو، بالمال؟

- المال؟ وطرفت عينا ريناتو. سأعودُ إلى المزرعة، قال بَعد وقت طويل. كان والده يرغب في أن يمتلك جراراً. طوال حياته كان يرغب في ذلك. الآن قد مات في الريف، والجرارات تمرُّ فوق عظامه. ميت إلى الأبد، ودونما نجوم. وُلد السراب من جديد في الابن، أكثر إيلاماً وعنفاً: ولتحقيق ذلك بالقوّة، تحوّلَ إلى صائد قنادس. في الأراضي المُجاورة لمزرعة والده، كان قد شاهدَ مرّةً جرار جنزير، كاتربيلر مطلياً بالأحمر... ريناتو، وربّما دون أن يدريَ كانت الأرض تنبضُ في جميع أنحاء جسمه، مثل آبائه وأجداده. خرجَ من حلمه بشيء يُشبهُ القشعريرة.

- إذا ما تقاضينا المال... أضاف بصوت خفيض.

شينو بيريث، مطأطأ الرأس، وطِئ التربة المُبتلّة. سُمِعَت رجّةٌ في الماء، وكان أحد الخطوط قد بقيَ متوتراً فجأة. بدأ يسحبُه على مهل، بحركات وئيدة بكلتا يديه. كانت سمكة التاتاريرا تنقاد سريعة ومتهيّجة في أقصى الخط، وهي تعضُّ الخيط المُعزّز بالأسلاك. وبشدّة قوية أخيرة سحبها إلى الضفّة. كانت الأسنان الصفراء والقوية تلتمعُ في فم السمكة، وكان لعينيها ثباث ضارب إلى الزرقة ولزج. أمسكَها شينو بيريث بالإبهام والسبّابة من الخياشيم وخبطها على رأسها بمقبض السوط

مرّتين. ثم أخرج الشصّ. صفر في الهواء ثقالة الشبكة من الصواميل وانغمر في الماء.

أطفأ ريناتو غليونه ونهض.

- سأراجعُ الفخاخ، قال.

- دع عنك ذلك، سأذهب أنا، أجاب شينو بيريث. لهجته صارت أكثر عذوبة. الأفضل أن تنام قليلاً، يا أخي. غداً يجب أن نمشي كثيراً.

استجاب ريناتو للأمر. استلقى على ملاءات الخيش، بثيابه الكاملة. وقبل أن يخلد إلى النوم، رأى لآخر مرّة طيف رفيقه، مُنتصباً فوق القارب، وهو يُجذف تحت ضوء القمر.

كان شينو بيريث يغمر المجذاف صامتاً والقارب يُكسّر المرآة اللامعة والصقيلة للماء. كانت البُحيرةُ تنامُ عميقة الأصداء والأصوات. تبرز مسالك منابت الأسل جليّة ومُعتمة.

لم يتبع شينو بيريث الطريقَ المُعتاد. كان ثمّة خوفُ خرافيٌ وحادُ يَخفق في دمه. لم يكن متعوّداً على الخوف. يسعى جاهداً لكي يقذفه بعيداً عنه مثلما يفعل الكلب مع النعرة. عند وصوله إلى جزيرة الدلبوث، توقّف عن التجديف.

في أحدِ مُنعرجات الجزيرة الصغيرة مساء البارحة، كان قد ظهرَ أمامه ابن رئيس خدم المزرعة في قارب. وكان شينو بيريث قد رآه قبل ذلك من بعيد مرّة واحدة وهو يعبُر الحقل، لكنه تعرّف عليه على الفور. لما رأى صائدي القنادس، قام بحركة فيها نوعٌ من التباهي برجولته وهو ما دفعه إلى تقويس أصابعه حول البندقية. لم يَزِنا جيداً كلماتهما ولم يكونا في حاجة لذلك. بنفس تلك الحركة الرجوليّة على المُحيا المراهق كان قد انحنى وسقط جنب القارب والطلقة في الحلق، بين نباتات القراص المائيّة الخشنة.

شينو بيريز لم يكن راغباً في المرور من هُناك. في الجزيرة كان يترك فخّين جيّدين. «فليحتفظ بهما كبير الخدم» فكّر بتجهّم.

كانت الريح تهبّ من الساحل، وتمشّط القصب. وكان جلجل يرشح بقطرات صوت في أيادي الهواء الباردة.

وتشكّلت فجأة، في البعيد، ليلة الكلاب، الطلقات، الضغينة الطليقة مثل نار مُتأجّجة. سمع شينو بيريث أصواتاً مكتومة كان الحقد يُصلّبها. كانت الريح تأتي بها حادّة، شرسة مثل لسعات.

وبعدئذ ساد الصمت أكثر مُباغتة، أكبر وأفظع من ذي قبل. صمتُ البُحيرة، المُثقل بالأسرار.

وتشقّقتْ الكلابُ من بعيد. كان شينو بيريث يزحفُ عبر منبت الحلفاء، صامتاً مثل قط باتجاه الطاحونة الكبرى، مهملاً منذ أن صارت مياه الحوض مالحة.

في سفح المطحنة كان العمّال قد أشعلوا ناراً مُتأجّجة. وفي وهَجها الضارب إلى البنفسجي كانت تبرزُ في شكل خيال صورةُ رئيس الخدم، حالكة كما الليل، شابكاً ذراعيه، مُنفرج الساقين، مُتحدّياً الليلة أن تنزع عنه انتقامه.

وفي ضوء القمر كانت عجلة الطاحونة الكبيرة تدور، مثل زهرة بيضاء ضخمة. كانت تدور ببُطء، وتتوقف بين الفينة والأخرى. ومشدوداً إلى ألواح الطاحونة وهو ينزفُ دماً، بعينين صارتا مثل الزجاج من شدّة الألم والرهبة، كان ريناتو جسد المعذّب يدور. وكانت الريح تأتي وتمضي بأناته، وكانت العجلة تدور ببُطء تحت السماء المُرصّعة بالنجوم.

وعلى بُعد مائتي خطوة من المطحنة، توقف شينو بيريث لكي يأخذ أنفاسه. كانت تحرق يديه لسعاتُ الأشواك. عادت الكلاب مُجدّداً جزِعة مُضاعفة بحدّة جوقة النباح الحانقة. واصلَ التقدّم. وعلى فترات كان يَصِلُهُ أنينُ ريناتو المُتحشرج. - صبراً أخي، صبراً.

وتوقّف على مسافة مائة خطوة من الطاحونة.

لم يكُن شينو بيريث يُخطئ أيّ رصاصة من طلقاته. على بُعد عشرين متراً كان يقتلُ بعيداً قنذساً بتسديدة في العين، لكيلا يثقب الجلد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صبراً أخي.

رفع بندقيته الوينشستر، بتأنٍ، بتأنٍ شديد. انغرست نظراته في الوجه المكفهر لرئيس الخدم، ترددَتْ لهنيهة، ثم واصلتِ الصعود نحو الهيكل اللامع للمطحنة. دارت العجلة نصف دورة وتوقفت وهي تُحدث صريراً، تاركة ريناتو في وضع عموديّ، رجلاه نحو الأعلى، مُتدلياً ووحيداً، وعيناه الزرقاوان تائهتان.

وضغط شينو بيريث على الزناد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وردة

خوان إدواردو ثونييغا(6)

أمام الطالب مرّتْ عربة بشرعة، وأمكنَهُ أن يلمحَ بداخلها الوجهَ الأنثويّ الجميل. في اليوم التالي، في الساعة ذاتها، عادت العربة مرّةً أخرى للعُبور أمامه وأومضَ أمامه الظلُّ الواضح للوجه بين الطيات المُعتمة لحجاب. تساءلَ الطالب مَن تكون هذه. انتظرَ حتى اليوم التالي، شديدَ الانتباه على حافة الرصيف، فرأى العربة تتقدّم إلى الأمام مع حصانها في خبب وميّزَ هذه المرّةَ المرأةَ ذات العينين الواسعتين المشرقتين اللتين كانتا توقعان النظرة عليه.

كان الطالب ينتظرُ كلّ يوم العربة، مفتوناً يفترسُه الأمل: وفي كلّ مرّة كانت المرأة تبدو له أكثر جمالاً. ومِن حُضن العربة ابتسمَت له فارتعشَ الهوى بداخله وفقدَ حينئذ كلُّ شيء أهميته، الدروس والأساتذة: كان ينتظر فقط تلك الساعة التي تعبرُ فيها العربة أمام بابه.

وأخيراً رأى ما كان يتشوّقُ إليه. حيّتْهُ، بتلويحةٍ من يدها، المرأة التي ظهرتْ للحظةٍ ووجهُها تعلوه ابتسامةٌ، حينئذ تبعَ العربة، كان يسيُر مُهرولا بسرعة، مَضى خلفها عبر الشوارع والساحات، دون أن يفقدَ النظر إلى الصندوق المتذبذب الذي اختفى عند انعطافة الزاوية وبدا مُجدّداً عند عبور الجسر.

مشى لوقت طويل وكان يشعرُ أحياناً بتعبٍ شديدٍ أو متحمّسٍ جداً، كان يُخطّط للحديث الذي سيُجريه معها. كان يبدو له أنّه يمرُّ من نفس الأماكن، ونفس الشوارع التي يغشاها الضباب أو الشمس أو الأمطار، نهاراً أو ليلاً، لكنّه في عناده كان يواصلُ، متأكّداً أنه سيلحقُ بها غيرَ مُبالٍ بالشتاءاتِ أو الأصياف.

بَعد رحلة طويلة ولا نهائية، توقّفت العربة أخيراً في حيٍّ بعيدٍ، فدنا منها بخطواتٍ مُتردّدةٍ ومُتعبةٍ، وهو يسيرُ مُتّكئاً على عصاه، وبجهد جهيد فتحَ بوابة العربة لكنّه لم يجِد بداخلها أحداً. رأى فقط على المقعد الجلديّ وردةً حمراء مُبلّلة وغضة. أمسكها بيده النحيلة واستنشقَ الرائحة الباهتة للوَهم الذي لم يتحقّق قط.

السّرّ

كانت بعدُ لا تزالُ شابّة صغيرة وكان الجميع يمتدحُ سحرَها وبراءتَها، وخصلات شعرِها على الكتفين حينما كانت تُغنّي خلال المساءات أمام البيانو الذي كانت تعزفه والدتُها، مُنفعلة لسماعِ صوتها.

كانت الحياةُ تمضي هادئة في ذلك البيت، لكن في يومٍ ما ظهرَ رجلٌ مجهولٌ وبقي للعيش هنالك. كان طويل القامة وجميلاً، طيّباً وذكيّاً فأُعجبت به الفتاةُ مُنذ البدء، أحياناً كانتِ الخيالاتُ تُضايقه، فتتعمقُ نظرته في تأمّل عينيها الزرقاوين. مُنذ أن حلَّ صارَ كلُّ شيء أكثر وضوحاً، وأكثر نبلاً، كان يغمر ذهنه في شيء من اللاطمأنينة ولكنه أيضاً كان يغمر القلب في دفء لا يوصف. كانت الأيام تطيرُ مُحلّقة، انقضى عام وأتت اللحظة الأخيرة: مضى هو وعرفَتْ هي زمن الحُزن والمُكابدة، لكنّها لم ترغب أن تسأل أيّ أحد إن كان سيعود.

وفي يوم ما، وبشكل غير مُتوقَّع، عاد الضيف ودنا من شفتيها وهمس: «لا تخافي يا عزيزتي، أنا لا مرئي بالنسبة إلى الآخرين» واتحدَتْ شفتاهُما بشغف. ومُنذ ذلك الحين ظلَّ قريباً منها: تراهُ في عُمق الغرفة، في الممرّ، وعند أسفل الدرج، كان يتبعُها في الشارع، وكانت تُحس ذاتها مُحتضَنة بين ذراعيه بقوّة وكانت تُسلم نفسها لعناقه. كانت ترافقها السعادة الأكثر غرابة في كلّ الأوقات: في الحديقة، وجنب البيانو، وكانت تلاحظ أنّ يديه تداعبانها. وليلاً، كانت تستيقظ وتجدهُ بجانبها، يفك على مهل أزرار قميص النوم.

كان الجميع يقول بأنّ نظرتها الساهرة ولونَ خدّيها المُتورّدَيْن يُمكن أن يكون بسبب الحمّى ولكن هي كانت تفكرُ ألاّ أحدَ يجبُ أن يعرفَ الحميا التي كانا ينغمسان بها في الحبّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شاطئ

روبيرتو بولانيو(7)

تركتُ الهيروين، وعدتُ إلى قريتي، بدأت علاج الميثادون الذي كان يُقدَّمُ لي في العيادات الخارجيّة ولم يكن لدي شيءٌ آخرُ أقوم به عدا أن أستيقظ كلّ صباح وأشاهد التلفزيون، وأن أحاول النوم ليلاً، لكنّني لم أكن أستطيعُ ذلك، شيء ما كان يمنعُني من أن أغمض عيني وأرتاح، وكان ذلك هو الروتين بالنسبة إلي، حتى أتى يومٌ لم أعد معه أستطيع أن أستمرّ أكثر على ذلك النمط من الحياة، فاشتريت بدلة استحمام سوداء من متجر وسط القرية وذهبت إلى الشاطئ وأنا أرتدي بدلة الاستحمام ومعي منشفة ومجلّة. وضعتُ منشفتي غير قريبة جدّاً من الماء وبعدئذ تمدّدتُ وأمضيتُ بعضَ الوقت أفكّرُ ما إذا كنتُ سأستحمُّ أو لا أستحمُّ، تحدّث لي دوافع كثيرة لكي أقوم بذلك، لكن تحدث لي أيضاً بعض الدوافع لكي لا أقوم بذلك (الأطفال الذين يستحقّون في الضفّة، على سبيل المثال). هكذا في النهاية انصرمَ الزّمنُ وعدتُ إلى البيت، وصباح اليوم التالي اشتريتُ مرهماً واقياً من الشمس وذهبتُ إلى الشاطئ مرّةً أخرى، وحوالي الثانية عشرة غادرتُ نحو العيادة وأخذت جرعتي من الميثادون وحييتُ بعضَ الوجوه المألوفة، لا صديق أو صديقة، فقط الوجوه المألوفة من طابور الميثادون والذين استغربوا رُؤيتي ببدلة الاستحمام، لكنّ الأمر عندي سيان، بعدئذ عدتُ مشياً إلى الشاطئ، وهذه المرّة قمتُ بأوّل غطسة، حاولتُ أن أسبح، وإن لم أستطع، لكن ذلك كان كافياً بالنسبة إلي. في اليوم التالي عدتُ إلى الشاطئ، وعاودتُ دهنَ جسمي بالمرهم الواقي من الشمس، بعد ذلك بقيتُ نائماً على الرمال، ولمّا استيقظتُ كنتُ أشعرُ بنفسي جدّ مرتاحٍ، لم يَحترق ظهري ولا شيء على الإطلاق، هكذا انقضى أسبوعٌ أو ربّما أسبوعان، لا أذكر، الشيء الوحيد المؤكّد هو أني كلّ يوم كنتُ أصير أكثر سمرة، وعلى الرغم من أني لم أكن أتحدّث مع أي أحد، كنتُ كلّ يوم أشعرُ بنفسي أفضل أو مُختلفاً، لا يتعلّق الأمر بالشيء نفسه، لكن في حالتي كان يبدو مُشابهاً له، وفي يوم ما ظهرَ في الشاطئ زوجان مُتقدّمان في السنّ، هذا أتذكّره بوضوح، ويبدو أنهما كانا قد قضيا وقتاً طويلاً معاً، هي كانت بدينة، أو مُمتلئة الجسم، وكانت تُشارف السبعين عاماً تقريباً،

وكان هو نحيفاً، أو أكثر من نحيف، كان أشبه بهيكل عظميّ يمشي، أعتقدُ أنّ هذا ما لفت انتباهي، لأنّي أحرص على قاعدة عامّة هي أني بالكاد أحدّق في الناس الذين يذهبون إلى الشاطئ، ولكن في هذين حدّقتُ، وكان سبب ذلك نحافة هذا الرجُل. لمّا رأيته أفزعني، يا له من جحيم، هو الموت بعينه قد أتى من أجلي، فكّرت، لكنه لم يأت من أجلي، كانا مجرّد زوجين مُسنّين، هو في سنّ الخامسة والسبعين وهي كانت في السبعين، أو العكس، هي قد بدت في حالة صحيّة جيدة، وكان هو يتّخذ مظهرَ مَنْ سينتهي ميتاً في أيّ لحظة أو أنّ هذا سيكون صيفه الأخير. في البداية، وبعد مرور الصدمة الأولى، كلّفني جهداً كبيراً أن أغضّ بصري عن وجه الشيخ، عن جُمجمته التي بالكاد تغطّيها طبقة رقيقة من الجلد، لكن فيما بعد تعوّدتُ على مشاهدتهما خلسة، وأنا مُلقى على الرمال، وجهي إلى الأسفل، أو ووجهي تغطّيه ذراعاي، أو من المَغبَرِ البحريّ، وأنا جالس على مقعد أمام الشاطئ بينما أتظاهر كما لو أني كنتُ أنفض الرمل عن جسدي. أتذكّرُ أن العجوز كانت دائماً تأتي إلى الشاطئ بشمسيّة وتستلقي تحت ظلّتها مُستعجلة، بدون ثوب السباحة، وإن كنتُ أحياناً قد رأيتها بثوب السباحة، ولكن عادة بفستان صيفٍ واسع جدّاً، والذي يجعلها تبدو أقلّ بدانة ممّا كانت عليه، وتحت المظلة كانت العجوز تقضي الساعات وهي تقرأ، كانت تحملُ كتاباً سميكاً جدّاً، في حين كان الهيكلُ العظميّ الذي هو زوجها يُلقي بنفسه على الرمل، يرتدي فقط بدلة استحمام ضئيلة، تكاد تكون تانجا وكان يمتصّ الشمس بشراهة، إذ كان يجلب لي ذكريات بعيدة، ذكريات حشاشين يستمتعون ثابتين، ذكريات حشاشين يُركّزون على ما كانوا يقومون به، على الشيء الوحيد الذي يُمكنهم القيام به، وحينئذ يُصيبُ رأسي صداعٌ حادٌ فأذهبُ إلى الشاطئ، كنت آكل على الكورنيش مزة من الأنشوجة وأشربُ البيرة، وبعد ذلك أشرع في التدخين وألقي نظرة على الشاطئ من خلال النوافذ الواسعة للحانة. بعد ذلك كنتُ أعودُ، والشيخ والعجوز لا يزالان بعدُ هناك، هي تحت المظلّة، وهو مضطجعٌ تحت أشعّة الشمس، حينئذ، وبشكلٍ غيرِ مُتبَصّرٍ، يجعلاني أشعرُ برغبة في البكاء، فكنتُ ألجُ الماءَ وأسبحُ. لمّا كنتُ أبتعدُ بما فيه الكفاية عن الشاطئ، أشرعُ في النّظر إلى الشمس، وكان يبدو غريباً أن تكونَ هنالك، هذا الشيءُ الكبيرُ والمختلفُ جدّاً عنّا، وبعد ذلك أبدأ السباحة حتى الشاطئ (في مرّتين كنتُ على وشك أن أغرق)، وعندما

كنتُ أصلُ كنتُ أدع جسدي يستلقي جنب منشفتي، وكنت أبقى لفترة طويلة أتنفّس بصعوبة، لكنّي كنت أتطلّع دائماً إلى حيث يوجد العجوزان، وبعد ذلك ربّما أظلّ نائماً وأنا مُلقى على الرمال، وحينما أستيقظ يكون الشاطئ قد بدأ يفرغ من الناس، لكنّ العجوزين يكونان بعدُ لا يزالان هناك، هي مع روايتها تحت المظلّة وهو مُستلق على ظهره، في منطقة بلا ظلّ، بعينين مُغمضتين وتعبير غريب على جُمجمته، كما لو أنه كان يشعرُ بكلّ ثانية تمرُّ ويستمتعُ بها، وإن كانت أشعّة الشمس ضعيفة، وإن كانت الشمس قد صارت في الجانب الآخر من بنايات الخطّ الأول المواجه للبحر، في الجانب الآخر من التلال، لكن هذا يبدو أنه لم يكُن يهمّه في شيء. بعدئذ، وأثناء اللحظة التي أستيقظُ فيها، كنت أنظرُ إليه ثم أنظر إلى الشمس، وكنت أحياناً أشعرُ بألم طفيف في ظهري، كما لو أنّي كنت قد احترقت أكثر من اللزوم في ذلك اليوم، ثم أنظر إليهما وأنهض، وأضعُ المنشفة على ظهري كما لو كانت معطفاً وكنتُ أمضي لأجلس على أحد المقاعد في المُتنزه البحريّ، حيث كنت أتظاهرُ بأني أنفضُ عن رجليّ الرمالَ التي لم تكن موجودة، ومن هناك، من ذلك الارتفاع، كانت رؤية الزوجيْن مُختلفة، كنت أقول لنفسي إنه ربّما لم يكن على وشك أن يموت، كنت أقول لنفسي إن الوقت ربّما لم يكن موجوداً مثلما كنت أعتقد وجوده، وكنت أفكّر في الزمن في حين يُمدّد ابتعاد الشمس ظلالَ البنايات، وبعد ذلك أمضي إلى البيت وآخذ لي دشا وأنظر إلى ظهري المُحمَرّ، ظهرٌ يبدو كما لو أنّه ليس لي بل لشخص آخر، شخص ما زلت سأستغرق سنوات كثيرة قبل التعرّف عليه، وبعدها أشغلُ التلفزيون وأشاهدُ البرامج التي لا أفهمُ منها أيّ شيء على الإطلاق، وأبقى نائماً على الأريكة. وفي اليوم التالي عود على بدء إلى الشيء نفسه، إلى الشاطئ والعيادة، ومرّة أخرى الشاطئ، والعجوزان، رتابة كان لا يقطعها أحياناً سوى ظهور كائنات أخرى كانت تظهرُ على الشاطئ، امرأة، على سبيل المثال كانت دائماً مُنتصبة، لا تضطجع أبداً على الرمال، كانت ترتدي من الأسفل بيكيني وقميصاً أزرق، وعندما كانت تلجُ البحر كانت تتبلّل حدّ الركبتين فقط، وكانت تقرأ كتاباً، مثل العجوز، لكن هذه المرأة كانت تقرؤه واقفة، وأحياناً تنحني، وإن بطريقة غريبة جداً، وتلتقط زجاجة بيبسي من حجم ليتر ونصف، وتشرب، واقفة، طبعاً، ثم تترك الزجاجة فوق المنشفة، التي لا أعرف لماذا أتت بها إن كانت لن تتمدّد أبداً عليها وأيضاً لن تنغمر

قط في الماء. أحياناً كانت هذه المرأة تُخيفني، كانت تبدو لي غريبة جداً، لكنها في مُعظم الوقت كانت فقط تثيرُ فيّ الإحساس بالشفقة، ورأيت أيضاً أشياء غريبة أخرى، في الشاطئ تحدث دوماً أشياءُ هكذا، ربّما لأنه المكان الوحيد الذي نكون فيه كلّنا نصف عراة، لكننا نفتقد إلى الكثير من الأهمية، مرّة اعتقدت أنني رأيتُ حشاشاً سابقاً مثلي، بينما كنت أمشي على ضفّة الشاطئ، كان جالساً على كومة من الرمل مع طفل ذي بضعة أشهر يضعه على ساقيه، وفي مرّة أخرى رأيتُ فتيات روسيات، ثلاث فتيات روسيات، ربّما كنّ مومسات وكن يتحدّثن ثلاثتهن، عبر الهاتف المحمول ويضحكن، لكن الحقيقة هي أنّ ما كان يُثير اهتمامي هو الزوجان العجوزان، بشكل ما لأنه كان لديّ انطباعٌ أنّ الشيخ سوف يموت في أيّ لحظة، وعندما كنتُ أفكّرُ في هذا، أو لمّا كنتُ أنتبه أنني كنتُ أفكرُ في هذا، كانت النتيجة أنه تتبادَرُ إلى ذهني أفكارٌ مجنونة مثل أنه بعد موت الشيخ سيحدُث تسونامي، وستدّمرُ موجة هائلة القرية بكاملها، أو أنّ القرية ستشرع في الاهتزاز، وسيكون زلزال بقوّة عظيمة من شأنها أن تجعل القرية كلّها تختفي وسط موجة من الغبار، وعندما كنت أفكّر فيما قلته، كنتُ لِلثّوّ أخفي رأسي بين يديّ، وأشرع في البكاء، وبينما كنتُ أبكي، أحلم (أو أتخيّل) أنّ الوقتَ ليلٌ، لنقُل الثالثة صباحاً، وأني أخرج من بيتي وأذهب إلى الشاطئ، وفي الشاطئ أجدُ الشيخَ مُضطجعاً على الرمال، وفي السماء، جنب النجوم الأخرى، ولكن أقرب إلى الأرض منه إلى النجوم الأخرى، كانت تسطعُ شمسٌ سوداءُ، شمسٌ ضخمةٌ سوداءُ وصامتة، وأني كنت أنزل إلى الشاطئ وأضطجعُ أيضاً على الرمال، الشخصان الوحيدان في الشاطئ كنّا أنا والشيخ، ولمّا عدتُ إلى فتح عينيّ انتبهتُ أنّ العاهرات الروسيات والفتاة التي كانت تبقى دوماً مُنتصبة والحشاش السابق مع الطفل بين ذراعيه ينظرون إليّ بفضول وهُم يتساءلون عمّن يُمكن أن يكون ذاك الشخص الغريبُ جداً، الشخص الذي كان كاهلاه وظهرُه مُحترقين، وحتى العجوز كانت تتأمّلني من انتعاش الهواء لشمسيتها وقد أوقفت قراءة كتابها الذي لا ينتهي لثوان، مُتسائلة ربّما عمّن يكون ذلك الشاب الذي كان يبكي في صمتٍ، شابٌ في سنّ الخامسة والثلاثين لا يملك شيئاً، لكنه كان يستعيدُ الإرادة والشجاعة، والذي كان يعرفُ أنه بعدُ مازال سيعيش زمناً أكثر.

السرير والمكتب

لويس فياض(8)

كان ليونسيو يحلمُ أنه ينامُ في السرير وأنه هناك كان يحلمُ أنه بسبب إهمالٍ ما بقيَ نائماً على المكتب.

رسالة منتصف الليل

مُنذ شهر والجُرَذ يتجوّلُ كلّ ليلة في الشقة. كان ليونسيو يسمعُه، وهو يتملّكُ المكان، فحاولَ التخلّص منه عن طريق تثبيت فخاخ ورشّ السمّ في الشقة. وعبثاً أيضاً حاولَ سدّ ثقوب الزوايا ووقف مُهدّداً وهو يحملُ مكنسة وراء الأبواب. في نهاية الشهر لاحظ ليونسيو نفسه وقد تغيّرت ملامحه، وكتب مُلاحظة: «من فضلك اتركني في سلام.» وعلّقها على أرضيّة المطبخ، ونام مُطمئناً، ولكنّ الشيء الوحيد الذي تغيّر خلال الليل كان المشي الجزع للجرذ، وفي صباح اليوم التالي، لمّا قرأ مُجدّداً الملاحظة، كان لدى ليونسيو الانطباع بأنّ الملاحظة كانت موجّهة إليه.

حظٌّ سيّئ

من محطّة الحافلات يُلاحظ ليونسيو جهودَ رجُل ظلّ مُتشبثاً برافدة البناية. بعضُ السيارات تتوقّف والعابرون بدؤوا يتجمّعون، وبصفتهم شهوداً يهمسون كلمات مُتسرّعة دون التجرّؤ على إصدار تكهّن. وقلِقاً، فكّر ليونسيو أنّ الحافلة يُمكن أن تأتيَ دون مقاعد شاغرة، وذاهلاً يقطع بنظرته مسار الرجل من الرافدة إلى الأرض. وحينما ظهرَت الحافلة، صعدَ ليونسيو على عجل وبحثَ دونما جدوى عن مكان فارغ. وفكّر: يا له من حظ سيّئ.

لقاءٌ ثانٍ بامرأة

المرأة أتاحت له أن يعرفَ من خلال النظرة أنّها تريدُ أن تقول له شيئاً. استجابَ ليونسيو، وحينما نزلت من الحافلة تبعَها. مضى خلْفها على بُعد مسافة قصيرة ولكن في حذر. بعد النأي إلى مكانٍ مُنعزلٍ، التفتت. كانت تحملُ بيدٍ صارمةٍ مُسدّساً. تعرّفَ

ليونسيو حينئذ على المرأة المُهانة في حُلمٍ واكتشفَ في عينيها علامات الانتقام.

- قال لها إنّ كلّ شيء كان مُجرّد حُلم، وفي الحُلم لا شيء يَهُمّ.

لكن المرأة لم تُنزل المِسدّس.

- هذا رهينٌ بمَن كُنتَ تحلمُه.

شخصية في مأزق

مُغامرات الشخصية جعلت ليونسيو يُركّزُ الاهتمامَ على صفحات الرواية. الشخصية كانت تفرُّ من عدد من الرجال المُسلّحين الذين كانوا يُطاردُونها في أزقّة مُظلمة، وهم يقفزُون فوق الأسوار، وهم يلجُون ما بين الشُجيرات المُنقذة. كان ليونسيو يَتشبّث بالكتاب، مُثاراً، وقد جعلَ مُعاناة الشخصيّة ذاتيّةً. الرجال يقصرون المسافة، بجهد جهيد كانت الشخصية تُثبت أنّها شاطرة، لكنهم تمكّنوا في النهاية من مُحاصَرتها وأوقفوها ضدّ جدار لإتمام مهمّتهم. لم يستطع ليونسيو أن يكبح قلقه.

- توقّفوا! صاح.

تجمّد المشهد. نظرَت الشخصية إلى ليونسيو وقالت له:

- هذه هي المرّة الأولى التي يتدخّل فيها شخصٌ ما، لكن الأفضل أن تصمُت: فبهذه الطريقة لن تسيرَ الأمور على ما يُرام.

رجلٌ وكلبٌ

ليونسيو يَمشي في شارع المدينة الصاخب. يَحملُ في يده صحيفة ومحفظة أوراق، ومن المعطف المُتدلّي على ذراعه يُمكن استنتاج أنّ المساء بارد، فليونسيو لا يتحمّلُ البرد مَهما كان خفيفاً. مُنذ دقيقة غادرَ المكتب، هي السادسة ودقيقة، وهو يتوجّه إلى محطّة الحافلات. مثل كلّ الناس، يَمشي بشكل مُستعجل في مُحاولة أبديّة وأحياناً عبثيّة للتمكّن من الجلوس على مقعد، ورغم الانشغال بالتفكير فقط في ذلك، فإنّه ينتبه إلى وُجود كلب بجانبه. لكنّه لا يأخذه في الحسبان ويواصل المشيَ بخطواته الواسعة، مُستعجلاً أكثر فأكثر. في وقت لاحق، يشعرُ أنّ الكلب

يقتفي أثرَه وأنّه يُخيفه بمعطفه. يتوقّف الكلبُ وهو يَحني رأسه في مشهد خضوع. لكن ليونسيو لم يُخفّف من سرعة الخطو، بل لم يغد حتى يتذكّر الكلب لمّا وصل إلى محطّة الحافلات. يقف في الطابور وحينئذ يشعرُ بشيء يحتك ببنطاله. ينظرُ إليه الكلبُ كما لو أنه كان يتفحصه. هذه المرّة يُمعِن ليونسيو النظر فيه: صغير، هزيل، مُصفر، تساقط عنه الشعر بشكل شبه كامل وجسمه تُغطيه القروح. يُفكّر ليونسيو أنّ الحافلة سوف تنطلق الآن وسيختفي الكلب، وسيشرع في قراءة الصحيفة. لكن الهدوء لن يستمرّ سوى بضع ثوانٍ. الأشخاص الذين ينتظرون في الطابور ينظرون الآن إليه بنفس القدر من الاحتقار الذي كان ينظرُ به هو إلى الكلب. هو لا مانع عنده في أن يعتقدوا بأنّ الكلب في ملكه، ويظهر ذلك من خلال الانشغال مرّة أخرى بالصحيفة، إذا ما كان الكلب هادئاً. ولكن الكلب عاد إلى الاحتكاك ببنطاله، ويبدو أن لديه نية في التبول على ساقه. ربّما لمّا ينعطف حول الزاوية، بين هذا الحشد من الناس، فإنه قد يتيه. ولكنه كان سيُضيعُ الكثير من الوقت، سيُفوت على نفسه الحافلة وسيكون مُضطرّاً بعدئذ إلى الانتظار دقائق أخرى يُمكنها أن تصيرَ نصف ساعة. هذا أفضل وبدأ يمشي مُسرعاً، متبوعاً من طرف الكلب، وهو يحاولُ أن يتوغّل حيثما يوجد المزيد من الناس، حتى لا يستطيع الكلب أن يرتاب من المكان الذي يتواجد فيه. بعد مائتي متر يبتسم بارتياح: قد قلب الرأس على عقب ولم يعُد الكلب يُرى في أيّ مكان. يَختم جولته بخطوات أقلّ استعجالاً، يتوقّف في طابور محطّة الحافلات، لا يرى وُجوهاً مألوفة، فقد مرّت الحافلة وسوف يضطرّ إلى انتظار حافلة أخرى، ينشرُ الصحيفة. وبينما هو يقرأ في الوقت الذي يُفكّر في الطعام الذي ينتظرُه، للمرّة الثالثة يُحسّ الاحتكاك ببنطاله ويتمّ تثبيت حمل في ساقه. قبل أن ينظرَ، يبتسم ويقول لنفسه إنّه مجرّد انطباع، لكنه عندما نظرَ بالفعل لم يكن بوسعه إلاّ أن يكبس الصحيفة مُحدثاً صخباً لم يكن ليُخيف إطلاقاً الكلب. تنهّدٌ عميقٌ من الغيظ استطاع أن يُهدّئه للحظة، وإن كان يلاحظ أن تنفّسه قد تأثر.

بعد بضع دقائق، تصلُ الحافلة. يصعد ليونسيو ويبحث عبثاً عن مقعد شاغر. على الرغم من كونه لا يجدُ تفسيراً لِما يريده الكلب، الذي يتأمّله من أسفل، لا يهتم كثيراً، مُمسكاً بيد القضيب في الأعلى ومركّزاً عينيه على الصحيفة. يُرغم الشارعُ المُزدحم

الحافلة على التقدّم ببُطء، وهو ما لا يُقلق ليونسيو لأنه أعزب وذو أنشطة محدودة. يرفع رأسه ليعرف ما إذا كان قد شغر مقعد ما، ولكن على العكس من ذلك، فالحافلة امتلأت أكثر. ومن شدّة حالة الشرود التي كان عليها، فإنه لا ينتبه حتى إلى تلك التفاصيل التي تحدُث. برجوعه إلى الصحيفة، يمتلئ وجهه بالدهشة المصحوبة بتعجّب خفيف: من كان معه في الحافلة، ينظرون بين الفينة والأخرى ليتأكّدوا من أن ليونسيو ما زال مستمرّاً في مكانه، فيما الكلب يركض. يتمكّن ليونسيو فقط من تهدئة نفسه بعد هُنيهة. حينئذ يُفكّر أنّ ذلك شيءٌ غير مهمّ، عندما يهبط سيدخلُ بسرعة إلى شقته وستنتهي المُلاحقة. يتبعه الكلب حتى الشقة دون أن يغفل عنه للحظة، وما لم يستطع ليونسيو أن يُفسّره، هو أن يتمكّن الكلب من التسلّل قبل أن يُغلق الباب. ليونسيو يفتح مجدّداً ويحاول أن يطرده بعيداً بمعطفه. في هذه اللحظة تنزل سيّدة من طابق آخر وتسأله عما يَحدُث، فيُغلِق البابَ دون أن يُقدّم أيّ إجابة. يلتفت ليهتمّ بالكلب مرّة أخرى. هذا ما لا يُطاق، لقد تمدّد على السجّاد وهو ينظرُ إليه بشطارة. يُلقي ليونسيو الصحيفة ومحفظة الأوراق والمعطف على كرسي حانقاً، يمضي إلى المطبخ، ثم يأتي بمكنسة ويستعدُّ أمام الكلب. هذا الأخير يواصلُ بعينين لامباليتين ويتجنّب الضربات بمهارةٍ لا تُصدّق. مُنهَكاً، يَترك ليونسيو جانباً المكنسة ويجلس. للحظة يُفكّر في استدعاء الشرطة، لكنّه يعتبرُ فكرة عدم القدرة على التخلّص من خصمه سخيفة. يُقرّر فتح الباب، والإمساك به ثم إلقاءه بيديه. الأمر غير مُجدٍ. ما كاد يمضي للإمساك به حتى شعرَ باشمئزاز عميق. يذرع أنحاء الغرفة بينما الكلب لا يتوقّف عن النظر إليه، بل وباستمتاع، فيُقرّر أن يتركه هناك. في الصباح، سيفقد بشكل ما ذلك الشعور، سيكون لديه مزيدٌ من الحماس. مُطمئناً يتوجّه إلى المخزن، يأخذ بيضتين، وخبزاً، وشوكولاته، ومن الثلاجة قطعة من اللحم، ويخبط بقوة فوق المائدة: من المُستحيل تناوُل الطعام بحضور هذا الوحش. باللحم في يده، يعتقد أن لديه الحلّ. يضعُ القطعة في الخارج، حوالي مترين من الباب، ويدعو الكلب للأكل. وبمُجرّد خروجه سيُغلقُ البابَ مثل وميض البرق. لكنْ خصمه مُحترسٌ ولا يمضي أبعد من إطار الباب. لا يهمّ، يُمكن طرده بركلة وإخراجه هكذا، ولكن عندما حاول ذلك، تنحّى الكلبُ جانباً وتهشّمت قدمُ ليونسيو مُصطدمة بالجدار. أغلقَ البابَ بقوّة وبوجه مليء بالعُنف انقضّ عليه لينتهي منه بشكل نهائي. لكن ليونسيو مُتبضّر،

الممسوحة ضوئياً بـ CamScanner

توقّف وهو يُفكّر في الأمراض التي يُمكن أن تُصيبه. ينظرُ إليه الكلب بازدراء، هادئاً، ساخراً. يقطع ليونسيو البيث بحثاً عن حلّ، وبعد أن يخبط الجدران ويضرب الأرض بحذائه، يتناولُ المحفظة، ويسحب بعض الأوراق، إذ كان يجب عليه أن يشتغل بقضية لها علاقة بالمكتب لم يُنهها بعد، يحملُ الأوراق إلى الطاولة ويُركّز عليها. بالكاد يُسجّلُ بضعة أرقام، فيضع جانباً القلم، ويقتربُ من الكلب ويشتمه مُتّهماً إيّاه بعدم القدرة على إتمام مهمّته. ودون أن يتوقف عن الصراخ، يمضي إلى غرفته الخاصّة ويأتي بلحاف، يتوقّف على بُعد ثلاث خطوات من الكلب، يُمسك بكلّ واحدة بكلتا يديه طرفاً من اللحاف، يُمدّدُ ذراعيه، ثم يقوم بانحناءات طفيفة لاكتساب الحافز، يهدر، ويتوعّد أكثر وينطلقُ في وقفة أفقية جميلة تنتهي لسوء الحظ على الأرضية بخبطة قويّة. ينهضُ وهو يصرخ، مُمسكاً شفتيه من حيث تنبثقُ قطرات من الدم، يُمرّرُ لسانه من على أسنانه ويختبرُ احتكاكاً غريباً، خشناً. يُسرع إلى الحمّام، وأمام المرآة يفحصُ فمه من الداخل ومن الخارج ويكتشفُ أن سنّين من أسنانه العليا، البيضاء واللامعة، والأكثر جلاءً والتي لم تحتج قط علاج طبيب أسنان قد انكسَرَت. يشعرُ برغبة في البكاء لكنه لا يبكي. بصعوبة ينتزعُ ربطة العنق، ويتركُها تسقط على الأرض، يقتلعُ زرّين من قميصه ومترنّحاً يتّجهُ إلى القاعة ويتدلّى على كرسي. هناك كان يُمكن أن يبقى حتى ينبلجَ الفجر، وينام بهدوء، وبالتأكيد سيفعلُ ذلك بلا انقطاعات وسيحلمُ قصصاً لطيفة، ولكن ذلك يعني أنه سيفقدُ المعركة، ويستسلم أمام هذا العدو الحقير جدّاً. بقفزة ينهض جامداً، ويبقى مُتصلباً، مُنتصباً بعيون لامعة ووجه عدوانيّ. يتجرّد من سترته، يطوي كفّي القميص، يتفحّص الكلب بعزم ويصرُخ في وجهه سأهزمك، أيّها البئيس. وفي تلك اللحظة يندم لعدم شرائه ذلك المُسدّس الذي عرَضه عليه ابن عمّه. ورغم أنّه لم يغد يهمّه الأمر في شيء، فإنّه في كلّ الأحوال سيكونُ المُنتصر. يُهدّد بقبضته الكلب ويكافحُ من أجل استعادة الهدوء: ذاك ضروريّ بينما هو يُحاول أن يعثرَ على سلاح مُناسب لكي يَخرج من المعركة مُنتصراً. يُفكّر في سكّين لكنه يعتبر الأمر غيرَ فعال، الكلب رشيقُ جدّاً، وقد أكّد ذلك في الهجوم بالمكنسة، وإذن يجب استبعاد الهجَمات المُباشرة. بدأ يشعرُ بنفاد صبره مجدّداً، بعد ساعة لم يتمكّن فيها من فعل أيّ شيء، عندما تتبادرُ إلى ذهنه مرسومة بجلاء واضحٍ فكرةُ سمّ الفئران. يبحث عنه بقلق، وعندما يجدُه ينظر

إليه كما لو كان كنزاً، يخرج ويأتي باللحم، يرشه خفيةً وهو في غرفته بتكتم لئلا ينتبه اللعينُ لذلك، ويضعه في صحن ويعود إلى القاعة. لا يَرى الكلب. يبحثُ عنه تحت الكراسي، بل ويرفعها عدّة مرّات، لكنّه ليس هناك. تحت طاولة الطعام، دونما جدوى. في الخزانة، فارغة. في الحمّام، مُقفر. في القاعة، تحت السرير والمكتب، بلا طائل. في المطبخ، ولا علامة. يصلُ، في سعيه الحثيث إلى التفتيش في درج طقم أدوات المائدة. لا يترك دون مُراجعة وفحص دقيق حتى الركن الأخير وهو يصرخ لا تهرب، لا تهرب. ويائساً من ذاته، هو الآن ينتحبُ قليلاً، مرّةً أخرى يُلقي بنفسه على الأريكة، ويضعُ وجههُ بين يديه، خجولاً من فشله الذريع، وهو ينتبهُ إلى أنه قد ترك الباب مفتوحاً. يلومُ ذاته، ويُعبّر عن استيائه مرّات عديدة، ويحملُ اللحم من جديد. وحينئذ، بقطعة اللحم في يده، يَخرجُ باحثاً عن الكلب في كلّ مكان.

شراء كتاب

مكتبة العجوز دون خوليو، بدءاً من الباب، بما في ذلك المقرعة ثقيلة على شكل رأس أسد والمفصلات المُتسخة بأيادٍ عديمة الخبرة لحجب الصدأ، وحتى خزانة الكُتب الخلفيّة والرفوف الجانبيّة المليئة بالكتب والمجلات، التي صارت حالكة بدرجة اللون ذاتها وتغضّنت برائحة واحدة للجميع، ومالكها المُتسربل ببلوزة مُستخدم، تمّ استخراجها من أحد الرفوف، والمكتب الواسع المصنوع من خشب الماهون كان، مثل منضدة المدخل، يبعثُ بسبب متانته القديمة مزيجاً من الراتنج والعرق، والأوراق والصحف التي ظلّت مُنذ عشرين عاماً تنتظر أن يتمّ ترتيبها في ركنها، كانت تُشكّل مشهداً ذا قيمة أكبر ممّا لو تمّ عرضُها للبيع. ومع ذلك، عند مُراجعة المُحامي باييخو لقسم الكتب الخاصّة بالعلوم السياسيّة فتحَ اعتماداً على الشريط الحريريّ الأسود دستوراً إنجليزيّاً من القرن السادس عشر كُتب بلغته الأصليّة. كان لا يزالُ بعدُ يجهلُ أنه تمّ برعاية الملكة إليزابيث الأولى، ولا شيء حتى الآن، لا العنوان «الدستور الإنجليزي» جعله يُضاعف من تركيزه ولا ألهمَ حركة اليد المُتسرّعة. ثم قرأ تاريخ الإصدار سنة ١٥٦٨، ومبهوراً تغاضى عن رؤية ما هو بعيد عن الاحتمال. ودون خوليو، وراء مكتبه الذي كان قد قضى فيه زمناً حتى صارت الكُتب التي باعها في زمن ما كإصدارات مُستجدّة تتحوّلُ الآن إلى كُتب جذابة في المكتبة،

كان قد تابع حركات المُشتري المُمكن والمألوف مُنذ دخوله، كان ينظر إليه بشكل روتيني، لكن بنظرة مُنتبهة وهو يعود إلى الصفحات التي أمامه. لمّا رأى المُحامي بايبخو تاريخ الإصدار، انفعلَ بشكل شعرَ فيه دون خوليو آثارَ ذبذباته. رأى المُحامي بايبخو بالكاد الغلاف والصفحة الأولى المقضومة فاستسلمَ لانفعالاته العصبيّة، وللمظهر العامّ لشيء قديم، فاستفسرَ عن السعر رافعاً يدَه بالكتاب. دون خوليو تصرّف وفق تجربته، التي مُنذ زمن طويل لم تكشِف عن حركة مُماثلة، ومن مسافة وجوده وهو يشرعُ في الانضمام بينما كان المحامي يتأمّله، حاول أن يُقدّم تحليلاً للكتاب الذي كانت قيمته بيسوين. لكنه لم يقل ذلك، وأجرى عملية حسابيّة أن ذلك الانفعال كان يستحقّ قيمة تفوقُ ذلك أربع مرّات، فابتسم برفق مُقتسماً وقع الحادث غير العادي لزبونه. مشى نحوه بتأنٍ، بالكاد يسحب قدميه.

- ثمانية. قال.

- ثمانية بيزوات، يا دون خوليو؟ - انفلتت الدهشة من المحامي بايبخو وقد شرع في وقفة لتصفّح الكتاب، وأضاف بهمس: غير مُمكن.

- وكم كنت تريد أن يكون سعره؟ - سأل الرجل الآخر، أخذ الكتاب من بين يديه دون أن يتركه له لكي يتصفّحه، وتأمّل الغلاف وظهر الغلاف، لكي يرى هل يستطيع أن ينتزع منه على الأقلّ أربعة بيسوات التي يعتبرها عادية وفق الرجّة الأولى، فوضع له نقطة أكثر علوا:

- في الواقع قيمته تسعة، لكن انفلت منّي أن أقول لك أنّ سعره ثمانية. المحامي بايبخو اعتقد أنه حلّ الالتباس بافتراض أن دون خوليو كان يختصر الحديث وأنه عندما كان يقول ثمانية كان يجب أن تفسّر على أنها ثمانمائة أو ربما ثمانية آلاف. هذه الريبة الأخيرة تخلّقت لدى المحامي، خصوصاً وأنها مُمكنة وإن بدَت ثمناً لاقتناء بيت، وهو ينظر إلى الكتاب الذي كان الآخر بعد لا يزال يحتجزه، طلبَ منه الكشف عن السعر دون سكوت عن أيّ صفر. وكان دون خوليو بعدُ يأمُل أن يحصل على البيزوات الأربعة، فوهماً بأنه هو أيضاً يعرف كيف يستمتع بالنسخة الجميلة من الدستور الإليزابيثي، تأمّله مرّة أخرى، وأعاده إلى المحامي بايبخو بابتهاج وكأنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمتلكه، وقال:

- حسناً، أنت زبونٌ لهذه المكتبة، لن تُعطني سوى سبعة بيزوات.

حينئذ فقط بدأ المحامي باييخو يشك في أنّ الرقم الذي كان يُعطيه دون خوليو لم يكُن يمتلك أيّ صفر، والآن مع يقينه من ضَلاله تعجّل في تصفّح الكتاب. دون خوليو لم يستطع تفسيرَ تغيُّر ملامح وجه المحامي عندما وصلَ إلى الصفحة الأولى ولا لونَ خدّيه عندما انتقلَ إلى الصفحتين المواليتين.

- حقّاً يستحقّ ذاك السعر، قال المحامي بتعجّب. فكّرَ دون خوليو كان بإمكاني أنْ أنتزعَ منه حتى عشرين بيسوات. انسحبَ المحامي باييخو وقام بجولة في المحلّ بينما كان يتذكّر، ثم بدأ يبتسم ويضحك من الانفعالات التي كان عاشها، تأكّد أن الكتاب بالكاد قيمته بيسوان ومع ذلك سمع دون خوليو وهو يقول له:

- هلاّ انتبهت إلى أنّ الكتاب يكادُ سعره يصلُ عشرين بيسواً؟

- واضح يا دون خوليو، أسرع المحامي باييخو في الرّدّ، وهو منشغلٌ أكثر بحيرته ممّا هو مُنشغلٌ بشقلبة دون خوليو. لما فكّر في حركاته التفتَ نحوه ونظر إلى وجهه باستفهام، وفجأةً بدا المحامي باييخو بالتأكيد جدُّ مُرتبكٍ إلى حدودٍ ما قبل لحظةٍ. كان يُلاحظُ أنّه كان قد بدأ يتعبُ من التفاوض واقفاً. نظر الاثنان إلى بعضهما في صمتٍ، كلّ واحد منهما ينتظر من الآخر أن يُعجّلَ بالنهاية. لوّح المحامي باييخو بالكتاب وقال:

- تبدو طبعة أصليّة.

- لو كانت كذلك لكان ثمنها ثمن ثلاثة بيوت، ردّ دون خوليو.

- أنا كنتُ قد أقمتُ لها حسابَ بيت كبير، قال المحامي باييخو.

- وفي غضون أربع مائة سنة سيكون ثمنها ثمن عشرة بيوت، قال دون خوليو، وفباشرة ابتسم في حركة أكثر واقعيّة: لكنّها الآن لا تُساوي سوى عشرين بيسوا تقريباً.

تأمَلَ المحامي باييخو العجوزَ وهو يُدير له ظهره ويتوجّه إلى مكتبه وينحدر إلى الكرسي وقد حرّر الروح من جهدِ خفلِ الجسدِ، وفكّر: «سأتركه له بعشر بيسوات»، وقال:

- أجل يا دون خوليو، وإذن ما هو الثمن الأخير.

قام دون خوليو بمحاولة للالتحاق لم يُكملها إلى الآخِر، الشيء الوحيد الذي استطاع أن يُحققه هو أن يُريحَ بشكل أفضل ذراعيه على الكرسي.

- أنت تعرفُ أنّ قيمته عشرون بيسوا، قال وهو يتظاهر بأنّه يضعُ عينيه على كتاب القراءة الذي كان يضعه على المكتب.

- جيّد جداً، قال المحامي باييخو، وبهذه الكلمات رفع دون خوليو بحركة مفاجئة وجهَه. وأضاف المحامي: سأعطيك عشرة بيسوات من أجل هذا ومن أجل هذا الآخر، ثم حمل من الرفوف مُختصر القوانين القديمة.

بقيَ دون خوليو مُرتبكاً ممّا أنجزه، حتى إنّه كان يُمكن أن يُقدم الشكرَ لزبونه، وأن يضع نفسَه تحت الأوامر من أجل أيّة خدمة أخرى، وخرج المحامي باييخو من المكتبة وهو يُفكّرُ فيما كان يحمله في يديه، وقد نسيَ البيسوات العشرة. وبالمقابل تأمّلَ دون خوليو الورقة الماليّة دون أن يُشوّش على ذهنه أيّ شيء آخر، أقنعَ ذاته أنّ الورقة له، أخفاها في الجيب. كان تبريرُه الأوّل: «لقد ضمنتُ الأكل لنصف أسبوع»، وبعدئذٍ رغبَ أن يَغيبَ من جديد في القراءة. وخلال لحظة قصيرة، صرَفَهُ إحساسٌ جعله يُفكّر: «مسكين هذا الرجُل، كيف صارَ أحمر وعصبيّاً» وأضاف: «من المؤكّد أنه يشتكي من مرض المعدة».

المنارة

خوان خوسيه أريولا

ما يفعلهُ خينارو أمرٌ فظيع. يُوَظِّف أسلحة غير مُتوقَّعة. وضعيتنا أصبحت مُثيرة للتقزز.

البارحة، على الطاولة، حكى لنا قصّة ديوث. كان ظريفاً فعلاً، ولكن كما لو أنّ أميليا وأنا كنّا قادرين على الضحك، فقد أفسد خينارو علينا ذلك بقهقهاته الزائفة العالية. وكان يقول: «هل هناك شيءٌ أكثر دعابة؟» وكان يُمرِّر يدَه على جبينه، وهو يُقلِّص أصابعه، كأنّه يبحثُ عن شيءٍ ما. وكنتُ أعودُ للضحك مرّة أخرى: «كيف سيشعرُ وهو يحمل قرنين؟» لكنّه لم يأخذ بعين الاعتبار إطلاقاً ارتباكنا.

كانت أميليا يائسة. وأنا كانت لديّ رغبة في أن أشتم خينارو، أن أقول له الحقيقة كاملة بأعلى صوتي، أن أخرج راكضاً وألاّ أعود أبداً. ولكن كما هو الحال دائماً، ثمّة شيءٌ يُوقفُني. ربّما أميليا التي فَنِيَت في الوضعية اللا تُحتمل.

مُنذ وقت وتصرّفات خينارو تُفاجئنا. كان يتحوّلُ في كلّ مرّة أكثر سخافة. كان يَقبلُ تفسيرات لا تُصدّق، وكان يُحدّد المكان والزمان لمُقابلاتنا الأكثر حماقة. لقد قام عشر مرّات بتمثيل كوميديا الرحيل، لكنّه عاد دوماً في اليوم المُحدّد. كنّا أثناء غيابه نمتنعُ عن الكلام دونما جدوى. وخلال عودته، كان يُحضِرُ هدايا صغيرة، ويُصافحُنا بطريقة لا أخلاقيّة، يكاد يُقبّلنا في العُنق، مُحتضناً لنا بشكل مُفرط على صدره. وقد بلغ الأمرُ بأميليا أن غُشِيَ عليها من الاشمئزاز بين عناقات من هذا القبيل.

في البداية كنّا نقومُ بالأشياء خائفين، ونحن نعتقدُ أنّنا مُهدّدون بخطر كبير. كان لدينا انطباعٌ بأنّ خينارو سوف يكتشفُنا في أيّة لحظة، وهذا كان يشوبُ حُبّنا بالخوف والخجل. والأمرُ كان واضحاً وجلياً في هذا الصدد. كانت الدراما تطفو حقّاً فوق رُؤوسنا، مانحة كرامة للشعور بالذنب. لكن خينارو جعلَ ذلك يتلاشى. ونحن الآن مُحاطون بشيءٍ كدِرٍ، كثيف وثقيل. نُحبّ بعضَنا في فتور، ضجرين، كزوجين. لقد اكتسبنا شيئاً فشيئاً العادةَ التافهة للتسامُح مع خينارو. وُجوده لا يُطاق ليس لأنّه

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

يُزعجنا، بل يَيسّرُ لنا الرتابة ويُحدثُ التعب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشاكل في الجحيم وقصص أخرى

خوسيه إيميليو باشيكو(9)

مشاكل في الجحيم

مرة كل مائة ألف سنة يأذن الشياطين بثمانين انتحارا في الجحيم. لا أحد يعرف من سيكون المختارين، وجميع السكان يهتاجون في التزلّف للمعذبين، ومؤامرات وسوء نية بين المعذَّبين. القطاع الراديكالي من الملائكة أعلن على الملأ احتجاجه حتى يضغط الإله في طيبوبته اللانهائية على الشياطين. لأنه ليس جيدا أن ينضاف إلى تعذيب ما لا يحصى من الخلق العقاب من خلال الأمل.

حكاية رعب

انتهك حرمة الديماس في منتصف الليل، فوجد جثته الشخصية في التابوت.

بائعة الحليب

كانت بائعة الحليب تضع المشاريع بينما هي تمشي في المدينة. فجأة، تحطمت

Telegram:@mbooks90

جَرّتها وتحولت أوهامها إلى شظايا في انفجار نووي.

المتآمرون

لا نريد أن نتركها في سلام. قبل أن تنتحر، دعا باء أصدقاءها. لم يقل ما كان يحاول قوله ولا نحن وصلنا إلى أن نتخيله. باء لم يُجرِ تدريبات ولا محاولات عامة. لا أحد لبى النداء. التخلي لا تبرير له. ولكن، وكما هو مفترض، لدينا مسكنات وإثبات الغيبة. يرن الهاتف في منتصف الليل. ثقة وثبات ارتعاب. نحن لم نعد ما كناه. الآن كل واحدٍ لديه واجبات ويحتاج إلى الاستيقاظ في وقت مبكر.

الانتحار هو نقد جذري لطريقتنا في الحياة، وفي المقام الأول، جريمة قتل رمزية. شعرنا كلنا أننا قتلنا باء، أما هي فانتقاما قتلتنا. نحن تنتب رعبا حين نفكر في أن كلمة واحدة منا، التفاتة متضامنة، مواساة الفلسفة المسيحية أو الرواقية، أمل الثورة العالمية، ذكرى اللحظات الجميلة في الشركة، انتشار إهاناتنا الشخصية وإخفاقاتنا،

سخرية ملائمة ومستهزئة... شيء ما كان من الممكن أن يكون كافيا لتجنب الانتحار.

أكثر مما في مكابدتنا الحميمة، في هذه المناورات التي تكشف لذاتها الرعب من أن يكون المرء حيا. ونحن نحش أنفسنا جد مذنبين حدّ ألا أحد يريد أن يتحمل الذنب.

وما بين ثرثرات واتهامات مباشرة، قمنا بحملة مغلقة حتى يتطهر أحدنا من التأنيب الجماعي - ويقوم لباء في موته بالحملة التي عرفنا كيف نقوم بها له وهو حي.

تحولات

في وسط المدينة ينهض تمثال غيّر شكله. في الليل يمثل ديانا، وخلال النهار يتخذ صورة أبولو. وإذا لبس صفات مارس يُعلن الحرب، جد واضحة وجلية رمزيته. لا أحد يجرؤ على تأملها أكثر من ثانية، لأنه إذا رأى فيها صورة ثاناتوس يعرف أنه في ساعات قليلة سوف يلاقي الموت. لعل التمثال يوجد فقط في خيال أولئك الذين يعتقدون أنهم يرونها. لكن هناك صوراً لتحولاتها التي لا تعدّ ولا تحصى. في أوقات أخرى كان هنالك حتى من تجرؤوا على لمسها، وقبل موتهم تركوا لنا شهادتهم. كيفما كان الحال فإن التمثال المتعدد أصبح هاجسا مستحوذا على سكان المدينة. أراد الملك هدمها لكن مجلس الشيوخ اعترض على الأمر لأنه حسب الأسطورة، حين سيتم تدمير التمثال ستكون نهاية العالم.

لا أحد

في الوادي يحدث شيء خارق لما هو طبيعي. يخرج مزارع من كوخه ليقدم شهادة عن المعجزة. يتحاور بضع دقائق مع الذي قام بالمعجزة. وعند عودته سألته زوجته: «من كان؟» يتخذ المزارع مقعدا له على الطاولة ويجيب: «**لا أحد. كان الإله**».

---

(1) خوان خوسيه ميلاس: (بلنسية ١٩٤٦) قاص وروائي إسباني من أهم الكتاب في جيله، من أهم

أعماله الروائية: الحديقة الفارغة (١٩٨١) الورق المبلل (١٩٨٣) حرف ميت (١٩٨٣) فوضى اسمك (١٩٨٨) العزلة كانت هذا (١٩٩٠) غبيٌ وميتٌ ونغلٌ وخفيٌ (١٩٩٥) العالم (٢٠٠٧).

(2) خوليو رامون ريبيرو (سانتا بياتريس بليما ١٩٢٩-ليما ١٩٩٤) كاتب بيروفي، يُعدّ من أهمّ كتاب القصة القصيرة في أمريكا اللاتينية، ينتمي إلى الجيل الذي عرف بالخمسيني، له أيضاً كتابات مسرحيّة ودراسات أدبيّة، من أهم مجموعاته القصصية: نسور منتوفة الريش ١٩٥٥، حكايات مصادفات ١٩٥٨، القنينات والرجال ١٩٦٤، الأسرى ١٩٧٢، وقد جمعت أعماله القصصية الكاملة في كتاب طبع عدّة طبعات تحت عنوان: كلمة الأخرس.

(3) خوليو غارميندِيا: كاتب وصحفي ودبلوماسي فنزويلي، وُلد في إيلطكويو ١٨٩٨، وتوفي في كاراكاس ١٩٧٧، يُعدّ من أهمّ كتاب القصة القصيرة في فنزويلا، هو أحد أعضاء جيل ٢٨، حصلّ على الجائزة الوطنية للآداب في صنف السرد سنة ١٩٧٤، وهو من مؤسسي الواقعية السحريّة في أمريكا اللاتينية. من أهمّ أعماله السردية: متجر الدمى، التين الشوكي الذهبي، الورقة التي لم تسقط في خريفها، الميت أنا، طبيب الموتى.

(4) خابيير مارياس: (مدريد ١٩٥١) قاص وروائي وكاتب مقالات ومترجم إسباني، عضو الأكاديمية الملكية الإسبانية للغة، وهو الابن الرابع للفيلسوف الإسباني خوليان مارياس والكاتبة الإسبانية دولوريس فرانكو. في ١٩٧٠ كتب أولى رواياته: مجالات الذئب التي نشرها في العام الموالي، وفي سنة ١٩٧٢ نشر روايته الثانية تحت عنوان: معبر الأفق، ثم في ١٩٧٨: ملك الزمن، وفي السنة ذاتها نشر ترجمته لرواية لورينس ستيرن حياة وآراء الفارس تريستام شاندي، التي نال عن ترجمتها جائزة الترجمة فراي لويس دي ليون، وفي سنة ١٩٨٣ صدرت روايته الرابعة بعنوان: القرن. في سنة ١٩٨٦، ظهرت روايته الرجل العاطفي. بعد ذلك بسنتين، صدرت رواية: كل الأرواح. وفي سنة ١٩٩٠، نشر أولى مجموعاته القصصية بعنوان: بينما كنّ نائمات. في ١٩٩٢ صدرت روايته: قلب جد أبيض، التي تمزج بين الرواية والبحث، وصدرت بعدها، في ١٩٩٤، رواية: غداً أثناء المعركة، فكّري فيّ، التي نالت عدداً من الجوائز، منها جائزة رومولو غايغوس وجائزة فاسطينرات التي تمنحها الأكاديمية الملكية للغة الإسبانية. في سنة ١٩٩٨ ظهرت روايته: كاهلُ الزمنِ الأسودُ وتوالت بعد ذلك أعماله الروائية مثل: وجهك غداً في ٢٠٠٢ في ثلاثة أجزاء: (حمى ورمح ٢٠٠٢ رقصة وحلم ٢٠٠٤ وسم وظلمة ووداع ٢٠٠٧).

(5) أوغوستو مونتيروسو: كاتب غوتيمالي من أصول هندوراسية، ولد في تيغوتيغالبا بالهندوراس سنة ١٩٢١ وتوفي بمكسيكو سنة ٢٠٠٢، اشتهر بكتاباته القصصية القصيرة ونال عنها عدّة جوائز عالمية. من أهمّ مجاميعه القصصيّة: «النعجة السوداء» و«حكايات أخرى»، «المستر طايلور»، «الحركة الأبديّة»، «الكلمة السحريّة»، وروايته «ما تبقى صمت».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(6) خوان إدواردو ثونيغا: كاتب روائي إسباني، مترجم وباحث في الأدب السلافي والبرتغالي (مدريد، ١٩٢٩)، درس الفنون الجميلة والفلسفة والآداب، وتخصص في الآداب السلافية، وخاصة الروسية والبلغارية. ينتمي إلى جيل الكتاب الخمسينيين، من أهمّ أعماله السردية: «المرجان والمياه» ١٩٦٢، «ألفاز الليالي والأيام» ١٩٩٢، «أزهار الرصاص» ١٩٩٩، «تلتمع القطع النقدية الصدئة» ٢٠١٠، وثلاثيته الشهيرة: «ثلاثية الحرب الأهلية في مدريد» التي تتكون من: نوفمبر مدريد الطويل ١٩٨٠، «ستغدو الأرض جنة» ١٩٨٩، و«عاصمة المجد» ٢٠٠٣.

(7) روبيرتو بولانيو: (سانتياغو ١٩٥٣ – برشلونة ٢٠٠٣) كاتب وشاعر من الشيلي، أحد أهم الكتاب باللغة الإسبانية، أصدر العديد من الأعمال الأدبية من أهمها روايتاه: الفخبرون الفتوحشون ١٩٩٨، و ٢٦٦٦ التي صدرت سنة ٢٠٠٤ بعد وفاة الكاتب. له في مجال القصة: المكالمات الهاتفية ١٩٩٧ والعاهرات القاتلات ٢٠٠١.

(8) لويس فياض: كاتب وشاعر كولومبي من أصول عربية، ولد في بوغوطا سنة ١٩٤٥، يُعدُّ حالياً من أشهر كُتاب أمريكا اللاتينية في مجال السرد والسرد القصير جداً. من أعماله في الرواية: أقارب إستر (١٩٧٨)، رفاق الرحلة (١٩٩١)، سقوط الاتجاهات الأربعة (٢٠٠٠) وصية رجل أعمال (٢٠٠٤)، وفي القصة القصيرة: أصوات النار (١٩٦٨)، رائحة المطر (١٩٧٤)، درس الحياة (١٩٨٤)، رسالة الآتي (١٩٩٢)، رجع الأصداء (١٩٩٣)، مرآة بعدئذ (١٩٩٥).

(9) خوسيه إيميليو باشيكو: « José Emilio Pacheco »(مدينة مكسيكو، ٣٠ يونيو ١٩٣٩– مدينة مكسيكو، ٢٦ يناير ٢٠١٤) شاعر وكاتب ومترجم مكسيكي، واحد من أكبر شعراء المكسيك في النصف الثاني من القرن العشرين. من أعماله الشعرية «عناصر الليل» (١٩٦٣) و«خمود النار» (١٩٦٦) «لا تسألني كيف يتلاشى الزمن» (١٩٦٩)، «ستمضي ولن تعود» (١٩٧٣)، «جزر يسحبها التيار» (١٩٧٣)، «منذ ذلك الحين» (١٩٨٠)، «مدينة الذاكرة» (١٩٨٩) و«بستان أطفال» ومن أشهر أعماله السردية: «معارك الصحراء» (١٩٨١)، حصل على عدة جوائز أدبية عالمية من بينها جائزة ثيربانتيس.

Telegram:@mbooks90